المكفول

عنوان الكتاب : المكفول
الموضوع : رواية
التأليف : مؤمن محمد صلاح
مراجعة لغوية : عمرو سالم سواح
الإخراج الفنيّ : عمرو سالم سواح
تصميم الغلاف : مؤمن محمد صلاح
الطبعة الأولى : ٢٠١٨
رقم الإيداع : ٢٢٩٨٤ /٢٠١٨
الترقيم الدوليّ : ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٥-٠٨١-٤

مؤسسة زحمة كتاب للنشر

مؤسسة زحمة كتاب بالاشتراك مع دار الزيات للنشر والتوزيع

رواية

المكفول

مؤمن محمد صلاح

هتفضل طور في ساقية غربتك بتدور محلك سر

سنين عمرك هتفرك تحت عتب الباب

وتصحى فجأه فتلاقي أن شعرك شاب

هتحن لزمان فايت

طعم الفرح مهما بيحلى في الغربه طبيخ بايت

ووجع الغربه زي الدبش

يا واد اللي ما داقش الغربه ما تأدبش

هشام الجخ

إلى الخارجين من أوطانهم ضاربين عرض
الأرض باحثين عن لقمة العيش وما
أخرجوا إلا إليها .

(الفصل الأول)

البحث عن سفر

ما زلت أبحث عن مخرج من لقب عاطل في بلد جلست أتعلم فيه أكثر من خمسة عشر عامًا، استنفذت خلالها جميع مدخرات أبي الذي ما زال يكرر الفعل نفسه مع إخوتي، لقد أظلمت الدنيا أمام عيني بعد مرور ثلاث سنوات على تخرجي من الجامعة ولم أحصل حتى الآن على أي وظيفة، لقد استنفذت كل النسخ التي أقوم بتصويرها من السير الذاتية التي أقوم بتكرار نسخها كلما انتهت، حطمت الأرقام القياسية كلها في دخول عدد الشركات والمكاتب في القاهرة وضواحيها ولم أجد حتى الآن وظيفة ولو بقليل من المال، لم أعلم أبدًا أن كل سنوات التعليم التي مرت عليّ حتى تخرجي من كلية التجارة جامعة القاهرة بتقدير جيد جدًّا تضيع هباءً أمام المحسوبيات وعدم الخبرة التي يخبرونني بها عند كل وظيفة أتقدم لها، لم أجد أمامي سوى حل واحد أن أبحث عن مكان آخر على كوكب الأرض بخلاف مصر، قررت أنا البائس (أكرم محمود حسني) النزول إلى مكاتب السفريات والبحث عن عقد عمل في أي مكان على كوكب الأرض المليء بالظلم، واخترت البداية من شارع القصر العيني المكتظ بمكاتب السفريات المتعددة، تقدمت نحو أول مكتب وجدته أمامي وأخبرت موظف الاستقبال أريد أن أسافر، رد عليّ متهجمًا وكأني أطلب منه شيئا محرمًا أو كأن طلبي كان بشكل غريب يشبه غريقًا يريد النجاة، فقال لي: "وما وظيفتك؟".

أخبرته بأني محاسب خريج تجارة القاهرة دفعة ١٩٩٩ .

رد الموظف وهو ينظر إلى زميله في المكتب وهما يتحدثان عن الإفطار وماذا يأكلان هذا الصباح فقال لي: املأ هذه الورقة وركز على التليفونات لو سمحت.

أخذت الورقة ثم بدأت في الكتابة للبيانات المعروفة الرسمية وأرقام التليفونات والبريد الإلكتروني وما أشبه ذلك، ثم أعطيت الورقة للموظف الذي رد بعدم اهتمام: "سنتصل بك عندما تأتي الفرصة المناسبة"، واضعًا أوراقي داخل ملف من البلاستيك الممتلئ عن آخره من هذه الورقات، نظرت إلى كمية هذه الورقات في حسرة ورحلت في صمت.

ثم قررت من باب الأمل أن أمر مرورًا سريعًا على مثل هذه المكاتب الموجودة في شارع القصر العيني، وتكرر معي نفس السيناريو المتبع في كل مكتب مع اختلاف شكل الموظف ونوعه ولكن أغلبهم مشتركون في الغطرسة وعدم الاهتمام بحال المتقدم.

ثم رجعت مجهدًا إلى البيت أفعل كل ما أفعله كل يوم من مشاهدة مباريات كرة القدم والتليفزيون والصحف اليومية والأكل والنوم هروبًا من واقع مؤلم.

ومرت الأيام أكثر من أسبوعين ولم يتصل بي أحد، لم أفقد الأمل وقمت بالبحث عن مكاتب أخرى في أماكن أخرى، وذات يوم وأنا أتطلع في أهرام الجمعة رأيت إعلان وظائف: مطلوب محاسبين خبرة وحديثي التخرج للسفر للخليج. نزلت سريعًا من بيتي وذهبت مباشرة إلى المهندسين هذه المنطقة التي يوجد بها المكتب المعلن عنه الوظيفة، عندما ذهبت إلى

العنوان المذكور وجدت شبابا يملأ مدخل العمارة بالسلالم حتى باب المكتب دخلت المكتب مصطحبًا معي أوراقي وأخذت موعدا للمقابلة يوم الأربعاء القادم السابعة مساءً، شعرت ببعض الأمل يدب في قلبي.

كان قد اقترب الموعد وتبقى يومان على المقابلة، جهزت بدلتي القديمة التي تصحبني في كل مناسبة عابرة، كانت قديمة ولكني كنت أقوم بغسلها وكيّها كل مناسبة وتعود لبعض ساعات جديدة ثم تعود مكانها منتظرة دورها في المناسبة القادمة، ولمعت حذائي وأصبحت كعريس ليلة زفافه ينتظر عروسه وذهبت في الموعد المحدد بسابق الوقت ساعة مبكرة، كانت الطاقة والأمل ما زالا في صدري عالقينِ والأماني كلها تدور في ذهني وأنه اقترب موعدي في التصالح مع نفسي.

دخلت المكتب مبكرًا وجدته مزدحمًا أيضا بل ربما زاد العدد عما كان موجودا يوم الإعلان، عثرت على مكان أجلس فيه بعدما سألت موظف الاستقبال عن موعد المقابلة فأجابني بالانتظار، ما زال الوقت باكرًا، وجدت اثنين من المتقدمين معي يتحدثان مع بعضهما البعض حول السفر بشكل عام، اتخذت مقعدًا بجوارهما وجلست، انتابني بعض الفضول مما يدور حولي وربما بعض القلق مما أنتظره، لا بأس دقائق قليلة وسنرى أول محاولة لمقابلة صاحب عمل غير مصري.

بعد ما يقرب من الساعتين انتظار دخل علينا رجلٌ سعودي يرتدي جلبابا أبيض وعليه غطرة حمراء منقوشة بالأبيض وعليها عقال أسود يمسك بيده حقيبة من الجلد الأسود، تبسم لنا وقال: السلام عليكم.

انتفض الموظفون من مجالسهم وكان أحدهم يعلم بدخوله وربما لم يسعفه الوقت لإبلاغ زملائه كلهم فأسرع نحو الباب وتمتم بكلمات بلهجة خليجية يبدو أن الموظف يعرف كيف يتعامل مع من يريدون الثناء، وقام بضيافته في حجرة المكتب الداخلية.

خرج لنا الموظف المتكلم صاحب الكلمات الرنانة لسمو الكفيل المبجل، وقام بتلقيننا بعض الكلمات التي نتبعها في خلال المقابلة الشخصية لكل واحد منّا عشر دقائق وبدأنا نسمع أول اسم من بيننا، ثم التالي والتالي إلى أن جاء دوري ودخلت الغرفة، وجدت الكفيل السعودي ومعه شخص آخر مصري لم أره من قبل ورأيت موظف المكتب المفوه يخبرني ببعض الكلمات المعتادة مع كل شخص يدخل الغرفة، جلست بالقرب منهم في غرفة ذات إضاءة منخفضة تميل إلى اللون الأصفر وصاحب العمل السعودي يكتب كل اسم من الأسماء التي تدخل إليه ويكتب تعليقاته على كل شخص في ورقة أخرجها من حقيبته السمراء.

سألني:

-ما اسمك؟

أخبرته بصوت خافض: أكرم حسني.

- منذ متى تخرجت أخ أكرم؟

- أنا خريج عام ١٩٩٩م.

- يعني كام هجري هذا؟ ذكرني لو سمحت.

- أعتقد أنه عام ١٤١٩ هـ .

- حدثني عن نفسك أخ أكرم

أجبت في تلعثم بعض الشيء، ربما لصعوبة السؤال ماذا أعرف عن نفسي؟ هل أجاوبه بأني أنا شاب كشباب مصر يبحث عن عمل في خليجكم أو يرى في السفر نجاة من غرق الحاضر؟ أو ماذا أقول عن نفسي؟ وجدتني أتكلم ما يحضرني فقلت له:

- أنا خريج كلية تجارة قسم محاسبة منذ ثلاث سنوات أجيد الحسابات بشكل جيد.

قاطعني:

- تعرف لغة إنجليزية؟

- نعم أعرف.

- هل ممكن تحدثني عن نفسك باللغة الإنجليزية؟

ارتبكت أكثر وظهر على نطقي الضعف الشديد في الكلام ثم قال لي:

- ماذا تعرف من مهارات الكمبيوتر؟

- نعم لدي كورس ويندوز وحزمة الأوفيس.

- وماذا عن المحاسبة على الجهاز؟

- أعرف الحسابات على برنامج Excel .

رد متجهمًا:

- فقط؟!

- نعم.

نظر إلى ورقته ثم دَوّن بعض الأشياء وقال لي: شكرًا أخ أكرم، سنتصل بك قريبًا إن شاء الله.

وجاء الموظف الموكل بصحبة الكفيل يخرجني في عجلة من أمره ويدخل المتقدم الآخر.

خرجت أشعر ببعض الغضب ربما من نفسي أو عدم إتقاني فن المقابلة ربما لأنها أول مقابلة مع شخص غير مصري، أو ربما لأنني شعرت بأنه غير راضٍ عن مقابلتي، أو ربما لشكل المقابلة التي تشعرنا بأننا قطيع من الأنعام يريد أن يختار أجودها، ولكنني كنت مشفقًا جدًّا عليه ذلك الشخص الذي يحضر إلى بلدنا ساعات قليلة ليختار شخصًا من مجرد مقابلة لبعض دقائق كيف له أن يضمن صدق هذا المتقدم؟ وكيف يضمن أن من يتزين الآن ويقدم أفضل ما لديه أن يستمر في ذلك بعد السفر؟

فكرت كثيرًا، لماذا بعض الشباب يعودون من غربتهم في غضون الشهرين؟ عندما وجدت الكذب والشهادات المزورة بين الشباب علمت لماذا يعودون، عندما علمت أن الكفلاء يريدون الثناء أكثر من العمل عرفت لماذا تتأخر الشركات عن غيرها وعلمت لماذا حالنا وصل هكذا.

بعد أن انتهيت من المقابلة رجعت إلى البيت مصابًا ببعض فقدان الأمل إلا أنني لم أبالِ كثيرًا، ربما أعلم أن المشوار ليس بالأمر الهين هكذا من أول مقابلة ستنتهي كل مشاكلي وتصدر تأشيرة خروجي من مصر بسهولة هكذا، لم يعد الأمر يحتمل كل هذا الضغط العصبي الذي أعيش فيه يوميًّا، لا بد من أن أعيش حياتي وأسعى لجلب الرزق في أي مكان، إنني أحزن فقط عندما يكون التقصير حليفي ولكني لم ولن أقصر في السعي أبدًا ويبقى الأمل بداخلي مهما حدث لي.

قررت أن أسير في شوارع القاهرة ليلًا وأستمتع بليل النيل الجميل تلك الأجواء التي لم ولن تجدها في أي مكان بالعالم بالرغم من كل ما يحدث في مصر من مشاكل إلا أنها تتمتع بجاذبية يحسدنا عليها الأجانب، هل ترى منظر النيل الجميل بالأضواء على الجانبين والمراكب تسير ببطء في أي مكان بالعالم مثل مصر؟ هل ترى أناسا يبتسمون في كل المواقف التي يمرون بها بالرغم من كل هذا الفقر والأمراض والتهميش؟ لا بد أن مصر سأشتاق إليها وتؤثر فيّ إذا افترقنا يومًا وخرجت منها، أعلم أن من يخرج من الأوطان ويتجه إلى السفر لم يعد منه إلا بعد انتهاء العمر، كل سير السابقين تقول ذلك، أخشى ما أخشاه أن أتحول مثلهم وأترك بلدي وأصبح ضيفًا يحل زائرًا كلما تسمح ظروفه بالخارج وينزل غريبًا ويعود غريبًا إلى أن يستقر في نهاية المطاف بالرجوع محملًا بالأمراض التي ورثها من الغربة ويبحث عن مدفنه الأخير.

لا لا... لا تسبق الأحداث، لا تكن متشائما هكذا ربما تفعل مثلما فعل بعضهم في غضون أربع سنوات على الأكثر انتهى من كل شيء يحلم به، أربع سنوات! ربما فعلًا أحلم، فإذا كنت أحدث نفسي ألا أكون متشائمًا هكذا، يجب أيضا أن أحدثها بألا أكون متفائلًا أكثر من اللازم.

لا بأس سيبقى كل شيء على ما يرام إن شاء الله، سأبحث عن مكان أحتسي فيه فنجانا من القهوة، ربما أجده على كورنيش هذا النيل الجميل.

بعد عدة أمتار وجدت "كافيه" يبدو أن أسعاره مرتفعة، لم أفكر كثيرًا طالما يوجد معي بعض المال، اخترت أقرب طاولة قريبة من النيل وخالية من العاشقين وغيرهم الذين يملؤون المكان المكشوف، وجلست وطلبت من النادل قهوة سكر زيادة.

غاب النادل بعض الوقت وفاجأني بالقهوة وقد كنت اقتربت على نسيانها واعتذر لي لزحمة الحاضرين لديه، ثم جلست أتناول قهوتي وأنظر إلى النيل، أسمع بعض الأحاديث التي تدور حولي، ربما لا يوجد أحد في هذا العالم خالي البال، أشعر أن الكل متعَبٌ، كلٌّ على حسب مشاكله وحجمها لديه، ربما أنا أعتقد أن مشكلتي أكبر مشكلة في هذا الكون وهو أنني فقط خريج حديث عهد لم أحصل على وظيفة ما تكفي ما أحلم به من زواج وشقة في مكان راقٍ، ربما تكون المشكلة التي أتحدث عنها الآن بالنسبة لغيري لعب عيال، تبسمت لنفسي لعب عيال؟ نعم لعب عيال، إذا كنت لم تصدق يا عزيزي فلماذا لم تفكر يومًا في زيارة أقرب مستشفى من

المستشفيات العامة وسترى؟ لا عليك أعلم أن مشكلتي صغيرة جدا بالنسبة لمشاكل أعظم وأكبر ولكنها بالنسبة لي حياة أو موت.

حسنًا سأتبع الطريق الذي بدأت فيه وطالما قررت السفر فسوف يسهل الله هذا الأمر إن شاء، سيحتاج الوضع بضعة أشهر أو ربما أياما من الصبر حتى أجد ما أبحث عنه، أعلم أنني ليس لدي أي معارف خارج مصر من أصدقائي أو حتى أقارب قد يساعدونني في موضوع السفر، تبسمت مرة أخرى لنفسي وبصوت به بعض الأسى.... أقارب!

أقارب من يا صديقي من تنتظر منهم أن يساعدوك، ربما أجد أن أغلب أقاربي يتمنون لي الفشل الذريع، لم أجد أكثر سوءًا من أقاربي، لم أرَ في حياتي قلوبا كقلوبهم الحاقدة، أعلم أنهم يحبون لي الفشل ويفرحون بتأخري في الاستقرار الوظيفي وعندما يسألونني أرى بأعينهم الشماتة، لا أعلم كيف أغلبهم يحصلون على شهادات بدون فهم، فقط شهادات دون علم، مجرد أوراق يعلقونها على جدرانهم في غرف استقبال ضيوفهم من باب الوجاهة والغطرسة الكذابة، لم يتعلموا من قبل "أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك" وأن "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" ولكن لم أجد منهم إلا الأنانية وحب الذات والطمع والجشع والتكالب على هذه الدنيا.

لا بأس لا تغضب، ربما أنت اليوم تحدثت مع نفسك الكثير، يجب أن أرحل الآن حتى لا يغلبني النوم بعد هذا اليوم الشاق.

ذهبت إلى البيت متجهًا إلى غرفتي الصغيرة التي أرتاح بها كثيرًا من تنسيقها المحفور في ذاكرتي منذ صغري وذكرياتي التي أرسمها على جدرانها

كل يوم ومكتبتي التي أحتفظ بها منذ أن كنت في المرحلة الإعدادية وهداياي التي جاءتني منذ سنين ولم أتلفها كباقي إخوتي، لا شك أن هذه الغرفة الجميلة بالذكريات ستبقى حنينا عندما أتذكرها في غربتي، لماذا تشعرني بأنك قد سافرت وتم الموافقة عليك ورحلت عن ديارنا؟ لا أعرف ربما بعد المقابلة الأولى شعرت بقرب السفر، ربما تجرأت أكثر وانكسرت بداخلي رهبة الكفيل الخليجي، ربما هناك أشياء كثيرة تدور بداخلي، حجم الأمل والحلم بداخلي لا يمكن وصفه، هل أنا سلكت الطريق الأكثر سهولة بالهروب من الوطن وعدم الصبر وعدم البحث عن وظيفة مناسبة؟

لا لا، أنا بحثت كثيرًا وحاولت أكثر ولكن إمكانياتي لا تسمح بأخذ مصروف آخر من أبي الذي يكدح على إخوتي الذين ما زالوا في مراحل التعليم المختلفة، ربما حساسيتك الزائدة تضطرك للدخول في أنفاق مظلمة، ليست حساسية بل هي إحساس، والفرق بينهما كبير في المعنى قليل في عدد الحروف.

أريدك أن تعلم فقط أن الناس عندما يرحلون إلى الغربة لم يعودوا مرة أخرى كما كانوا، يتبدل بداخلهم كل شيء جميل، أغلب الذين رحلوا تغيروا إلى الأسوأ، أغلبهم اشتركوا في قسوة القلب والجفاء، الكثير منهم من اعتاد البعد، والبعيد عن العين بعيد عن القلب، وأنت أيضا يصبح بعدك عنهم اعتيادا، يعتادون على غيابك وستلاحظ ذلك، أريدك فقط أن تسأل من خرجوا إلى الغربة منذ سنين ماذا تنصحني؟ وماذا لو عاد بك الزمن، ماذا ستختار؟

أنا لم أجد اختيارا، أنا هنا لم أجد عملًا ولو وجدت سيكون بمرتب معدوم لا يكفي لحرق سجائري اليومية، لم أكن بين ضفتين لأختار بينهما ولكني لم أجد إلا هذا الحل بعد أن ضاقت بي السبل ووجدت الواقع مختلفا تماما عن أحلام الدراسة وأيام الجامعة.

لا أحد يشعر بأحد في هذه الدنيا يا عزيزي، أنت تتقطع من الحزن وأنت تسير في الشارع وغيرك لا يبالي بك، حتى أقرب الناس إليك ربما يحزن عندما يجدك حزينًا لكن لا أحد يشعر بجرح أحد مثل صاحبه لذا فحاول أن تكون قراراتك المصيرية من نفسك ومن قلبك وفكرك ومما تعانيه أنت، ثم قرر بعد أن تحسم الأمور بداخلك، ومن داخلك فقط، لأنه ببساطة أنت وحدك من يدفع الثمن.

مر أكثر من عشرة أيام على كل ذلك وجاءني هاتف مقابلة شخصية لمندوب مبيعات، أخبرت المتصل:

- حضرتك أنا محاسب.

قال لي: ممكن تحضر المقابلة ربما يعجبك العرض؟

أغلق الهاتف بعد أن أعطاني العنوان وموعد المقابلة، تعجبت جدا لذلك، بدأت تلوح في أفقي أن أعمل أي شيء آخر بخلاف المحاسبة، ربما يكون تحصيلي للعمل أفضل وربما يكون الدخل أفضل، المقابلة بعد غد سوف أفكر في الموضوع وأستخير ربي ربما يكون الأمر خيرًا لي.

توجهت للمقابلة كالعادة ووجدت ازدحاما شديدا أكثر مما رأيته في المقابلة الأولى، ربما مناديب المبيعات أكثر من المحاسبين، دقائق بعد دخولي وعلمت السبب الرئيسي في زيادة عدد المناديب؛ فكان ذلك بسبب أنهم لم يطلبوا مؤهلا معينا إنما وجدت هناك مؤهلات أخرى كالحقوق والآداب والتجارة والخدمة الاجتماعية، مرت الساعات ثقيلة وكان كل فترة هاتف بداخلي يخبرني بالرحيل، إلى أن جاء دوري ودخلت إلى غرفة المقابلات، والغريب أنهم وافقوا عليّ بسرعة، يتبقى أنا أن أقبل أو أرفض عرضهم.

شعرت بإهانة في هذا العرض عندما أخبرني بأنهم شركة توزيع مياه ونحتاج لمناديب تحمل رخصة سيارة ويقومون بالتوزيع مع توصيل المياه إلى المنازل والراتب سيكون ألفًا وثلاثمائة ريال وإذا حققت مبيعات تفوق المائتي ألف في الشهر سيضاف لك خمسمائة ريال شهريًّا كعمولة.

شعرت باستياء شديد؛ كيف لمندوب أن يحقق المبيعات المطلوبة؟ لا أدري هل مطلوب مني أن أبحث في البيوت عمن يشتري مني الماء وبذلك يزداد الدخل؟ كيف يربطون العمولة بمقدار توزيعك؟ ربما يصلح ذلك في بعض المنتجات كالمرتبطة بالبيع لمتاجر التغذية الصغيرة على الأقل سأتعامل مع موظف مثلي لكن كونهم يشترطون أيضا أن تبحث عمن يشتري الماء في البيوت شيءٌ شديد الغباء، ربما هناك طرق أخرى لتعاقد أصحاب البيوت مع الشركات.

المهم أنني تركت المكتب ورحلت دون أي كلمة مني، والأغرب أنني لاحظت من يخرجون معي من المقابلة فرحين بذلك العرض بل منهم من

وافق وسعد بذلك، لا بأس أنا لا أعلم ظروف الناس وربما هذا العرض لغيري كان مغريًا.

رجعت المنزل وعدَّى الأمر وكأن شيئا لم يكن، الدرس الوحيد الذي تعلمته من هذه المقابلة أنني لا أتنازل عن العمل في مهنة غير مهنتي مهما كانت الظروف.

مرت الأيام وكنت في زيارة لأحد أصدقائي ووجدت لديه جريدة أخبار كانت بتاريخ الأمس، تصفحتها سريعًا ووجدت إعلانا صغيرا في مربع أسود مكتوبا باللون الأبيض (مطلوب محاسبين حديثي التخرج)، أخذت رقم الهاتف والعنوان وقمت بالاتصال بهم وحدد لي الموظف موعدا للمقابلة.

ذهبت إليه على أمل أني أحصل على هذا العمل داخل مصر، قابلتهم ووافقوا عليّ بأن أعمل لديهم في مهنة كاشير، ربما قريبة من مهنة المحاسبة ولكن كان المرتب محزنا للغاية، قررت أن أقبل بهذا العمل مؤقتًا.

تسلمت العمل الذي يحتاج مواصلات في الشهر بحوالي مائة وخمسين جنيها وكان المرتب لا يتعدى أربعمائة جنيه، وساعات العمل تصل إلى العشر ساعات وأي خلل في الحسابات سأتحمل نتائجه.

كل ذلك لا يهم، أريد فقط أن أملأ هذا الفراغ الرهيب الذي يحيطني، وأن أبدأ الآن ربما تتحسن الأمور غدًا أو ربما أحصل على سفر كما أحلم، ما زال الأمل في داخلي لم أفقده.

ومرت الأيام والشهور وأنا أتحمل هذا العناء في العمل الكئيب الذي لم أحبه قط، وكلما سمحت لي الفرصة في عمل مقابلة سفر ذهبت للمقابلة، واستمر الوضع ما يقرب من الستة أشهر إلى أن جاء يوم وكان قد بدأ اليأس يدخل قلبي من محاولات القبول في السفر ومع تكرار المقابلات التي لم تفلح، رنّ هاتفي الجوال بمكالمة من مكتب سفريات ربما تكون أول مرة أسمع باسم هذا المكتب ولم أتذكر متى بالتحديد أرسلت لهم أوراقي:

- أستاذ أكرم حسني؟

- نعم أنا هو.

- ممكن حضرتك تشرفنا غدًا في المكتب؛ عندك مقابلة سفر للسعودية؟

- أين المكتب؟

- المكتب في شارع جسر السويس وهذا تليفوني كلمني بمجرد وصولك، حضرتك محاسب خريج تجارة ٩٩؟

- نعم.

- أنتظرك غدًا في السادسة مساءً.

- إن شاء الله.

- سلام عليكم.

- وعليكم السلام.

ترددت كثيرًا في الذهاب لهذه المقابلة ولكن صوت الموظف كان مختلفًا شعرت من مكالمته وكأنه يعرفني أو يريدني أنا بالتحديد، لم أتذكر أن سيرتي الذاتية بها من المؤهلات ما يجعلني مميزًا لديهم.

قررت الذهاب وكان المكتب مزدحمًا كالعادة، وكأن كل شباب مصر يريدون أن يرحلوا وكأن الحلم هو فقط في الخروج، دخلت المكتب وجدت شخصا يرتدي بدلة رسمية يبدو عليها أنها قديمة بعض الشيء ولا يرتدي رابطة عنق، يحل على وجهه أثر التعب، كلامه قليل بعض الشيء، سألني بصوت به تعب:

- ما اسمك؟

- أكرم حسني.

- مؤهلاتك وخبراتك يا أستاذ أكرم؟

- أنا خريج كلية تجارة قسم محاسبة عام ٩٩ وأعمل في مهنة كاشير بمطعم في وسط البلد.

- لماذا عملت بمهنة كاشير وأنت محاسب؟

- لأنني لم أجد فرصة في وظيفة المحاسبة

- هل تتحمل ضغوط العمل يا أستاذ أكرم؟

- نعم، ولكن ما مدى هذه الضغوط؟

- أي ضغوط ممكن أن تصل إلى اثنتي عشرة ساعة عمل.

- لا بأس.

- هل أنت متزوج أو مرتبط؟

- لا.

- جميل هذا ميزة جيدة لدي.

- لماذا؟ هل حضرتك العامل الشاق لهذه الدرجة؟

- لا أبدا، ولكنك ستعرف فيما بعد، كم المرتب الذي تتوقعه أستاذ أكرم؟

- لا أدري تحديدًا حجم العمل ولا أدري كم يستحق.

- نحن شركة مقاولات، أريد محاسبين يعملون لدي ولكن أنا لا أحب فقط شخصا يعمل لدي مهنة واحدة، أريد محاسبا وأشياء أخرى.

- مثل ماذا؟

- أريد شخصا لديه مهارة وقدرات، يعمل لدي ما أريده كالمحاسبة والسكرتاريه وإذا لزم الأمر أن يقود سيارة.

آه.... توقعت أن الأمر سيتوقف عند ذلك فقط ربما نحن كالغرقى نتعلق بأشياء صغيرة تحملنا إلى بر الأمان آملين بتفاؤل فيما بعد، قلت:

- لا بأس وأنا أجيد ذلك...

قلتها وأنا أسمع بداخلي الرفض بأن الأمر لا يتوقف على ذلك أو كأنني لا أستطيع تحمل كل ذلك فيما بعد.

تبسم لي صاحب العمل وقال:

- اعتبر نفسك مقبولا أخ أكرم.

وقام من مجلسه ومد يده إليّ وقبض على يدي وكأنه عقد قران وقال

- إن شاء الله ستكون سعيدا معنا.

تبسمت له وقلت: "ولكن أنا لم أعلم تفاصيل العقد".

قال لي: "لا بأس سترى العقد وستقبله إن شاء الله".

كنت مذهولًا شديد الفكر أفكر فيما حدث، أشعر بدوخة خفيفة وكأن رأسي يحمل حجرًا ضخمًا، خرجت إلى الصالة الخارجية، جلست على كرسي في طرف الصالة أفكر فيما حدث، وأرى موظفي المكتب مشغولين في دخول باقي الناس لديهم، انتظرت ما يقرب من العشر دقائق وجاءني موظف يبدو عليه أنه أكبرهم سنًّا يقال له "أبو شادي"، قال لي:

- يبدو أن أبا طلال مبسوط منك يا أستاذ أكرم.

كنت أنظر إلى الأرض وأفكر، رفعت رأسي إليه وهززت رأسي، وقلت له:

- ماذا أفعل الآن؟

- لا شيء سنتصل بك بعد يوم أو يومين.

خرجت من المكتب أفكر فيما حدث وفيما يحدث، بعد يومين اتصل بي أبو شادي وقال لي: "مبروك أستاذ أكرم تم اختيارك من بين المحاسبين الذي وقع الاختيار عليهم من أبي طلال".

قاطعته: "والعقد وتفاصيله؟".

قال لي: سأنتظرك غدًا في العاشرة صباحًا سأشرح لك كل شيء ولكن وجب عليك توفير مبلغ المكتب.

مبلغ المكتب!... سمعت الكلمة وكأنني أسافر مجانًا لماذا؟ هل لأنني لا أعرف أن المكاتب لديها عمولة، وأن السفر ليس بالمجان؟ كنت أعلم ذلك ولكني لم أكن أمتلك أي شيء، رددت عليه: " وكم يكون؟".

تبسم وقال: "المكتب عمولته خمسة آلاف جنيه، وطبعا أنت عارف شاي الموظفين ولا تنساني عمك أبو شادي".

وضحك ضحكة عالية في التليفون، أغلق الهاتف، وجلست مصدومًا من كل هذه المبالغ، هذا بخلاف الكشف الطبي وما إلى ذلك.

فكرت أن أغلق ملف السفر إذا كان بهذا الأمر الصعب وكيف أوفر كل هذه التكاليف الباهظة وأنا الذي لم يدخر من عمله في مصر ما يكمل الألف جنيه.

رجعت إلى المنزل، لم أتحدث مع أحد في هذا الأمر حتى أعلم ما يتسنى لي أن أفعله، فلا جدوى من الحديث عن طلب المال لأنني بالتأكيد أعلم أن والدي ليس لديه ربع هذا المبلغ ليعطيني إياه للسفر.

وفي المساء قابلت أصدقائي على الكافية المعتادين على المقابلة فيه، حدثت أقربهم لي صديقي أحمد إسماعيل عن الأمر وأبلغته بالمبالغ المطلوبة

وقلت له: "أفكر في ترك الأمر؛ لم أكن متوقعا كل هذه المبالغ، ولا أدري كم سيكون المبلغ بعد الكشف الطبي وغيره".

صمت قليلًا ثم قال لي: "ما رأيك في أن تدخل معنا (جمعية)".

- ما هذه الجمعية يا أحمد التي توفر هذا المبلغ كله؟

- هل تحتاج خمسة آلاف جنيه؟

- نعم هذه مصاريف المكتب فقط.

- لدي بعض الأصدقاء نقوم بعمل جمعيات باستمرار كلما تنتهي الأولى نقوم بعمل أخرى تفيدنا جميعا في جمع مبلغ من المال يساعدنا في شيء ما من متطلبات الحياة كما تعلم حال الكثير من المصريين.

- وكيف يمكنني أن أقنع أصدقاءك بأني أحصل على المبلغ الآن؟

- هذه مهمتي وسأقنعهم بذلك إن شاء الله.

- وكيف يكون باقي المبالغ؟

- سترسل لي المبلغ بداية كل شهر وأنا أقوم بدفعها لهم على حسب الترتيب، الآن نحن عشرة أفراد وبك سنصل إلى أحد عشر، كل شخص منا سيدفع شهريًّا خمسمائة جنيه، بالتالي سيكون المبلغ خمسة آلاف وخمسمائة جنيه شهريًّا.

هدأ قلبي قليلًا وشعرت بالأمل مرة أخرى يجري في دمي، ولكن تعجبت لهم كيف لأصدقائي أن يوفروا الخمسمائة جنيه؟!

وبالفعل أقنع صديقي أحمد كل أصدقائه بأن نقوم بعمل جمعية جديدة بالرغم أنهم لم ينتهوا بعد من الأولى ولكنهم وافقوا أولًا لرغبة أحمد وثانيًا أن الجمعية الأولى قاربت على الانتهاء.

تأخرت يومين على المكتب إلى أن جاءني الاتصال من أبي شادي:

- سلام عليكم، فينك يا أستاذ أكرم... من أولها كده تأخير، إنت عايز تسافر ولا أشوف حد غيرك.

قالها بنبرة الواثق الذي لديه الكثير، أجبت في لهفة:

- لا لا لا... تشوف حد غيري إزاي، أنا كان عندي بعض الظروف بس آسف على التأخير.

قال: أنتظرك اليوم الساعة السابعة مساءً، أحضر معك كل أوراقك.

أغلق الهاتف وشعرت ببعض الحيرة؛ أنا أريد السفر والهروب فلماذا كل هذه المخاوف تأتيني، هل الأمر طبيعي أم لا؟

أنا هكذا هل نسيت نفسك عندما تهم بعمل مهمة جديدة تشعر ببعض الارتباك والتوتر ويظهر ذلك عليك فما بالك بأن الأمر خروج من مصر وبداية حياة جديدة ووداع الأهل والأصدقاء ولم تعلم متى ستقابلهم مرة أخرى.

كل ما عليك أن تبدأ أول إجراءات السفر وسيدبر الله أمرًا كان مقضيًّا.

ذهبت إلى المكتب بصحبتي أوراقي وجواز سفري الذي أعددته بمهنة محاسب، ولكن عندما تحدثت مع أبي طلال أخبرني بأن التأشيرة بمهنة عامل عادي، غضبت كما لو لم أغضب من قبل.

- كيف ذلك؟

- هذه إجراءات روتينية ومن الممكن بعد السفر أن تغير مهنتك.

رفضت الأمر وغادرت المكتب.

اتصل بي أبو شادي يخبرني بأنه أبلغ أبا طلال بالأمر وطلب الأخير رقم جوالك.

قلت له: "لن أسافر إلا عندما أجد في التأشيرة نفس مهنتي".

لم أكن أعلم أنني ممكن أن أضحي بالسفر في مثل هذا الموقف الذي يخبرونني به بأنه روتيني ولكن شيء ما بداخلي يرفض هذا الأمر مطلقًا.

في اليوم التالي عصرًا اتصل بي أبو طلال:

- سلام عليكم، كيف حالك أخوي أكرم... بشرنا عنك عساك بخير، كيف الأهل جميعا؟

- الحمد لله

- ليش ما قبلت العرض على تأشيرة العامل؟

- أنا لست عاملا ولا أريد الدخول في متاهات فيما بعد.

- لا يا أخي لا يوجد متاهات إن شاء الله.

أجبت في سري: أخشى الذين يطلقون ألسنتهم بالأدعية والأذكار وشعارهم التدين والدين منهم بريء.

لا أدري لا أرتاح لهذا الرجل ربما شيء في قلبي يحدثني ولكن حاجتي إلى السفر والمال أكبر من إحساسي الآن ناحيته، أجبته:

- أريد تأشيرة محاسب إما لا.

أجاب في غضب واضح في صوته

- أبشر خيرًا إن شاء الله، سلام عليكم.

- وعليكم السلام.

بعد هذه المكالمة شعرت بارتياح ربما لأني أيقنت أنني تعاملت معه بجفاء وشدة بالتالي لن أسافر، ولكني فوجئت بهم يتصلون بي بعد ثلاثة أيام بأنهم سيعطونني أنا تأشيرة المحاسب والشخص الآخر الأكبر مني سنًّا ويسافر معي بمهنة محاسب تكاليف سيأخذ مهنة عامل، بالإضافة أن هناك أربعة أشخاص آخرين سيسافرون معنا بمهن أخرى لا أدري عنها حتى الآن.

تفاجأت وتعجبت لماذا يصر هذا الرجل على سفري معه حتى الآن؟!، ربما شيء لم أعرفه وربما هذه الأقدار تذهب خلفك مهما حاولت الهروب.

ذهبت إلى المكتب وأخذ مني أبو شادي جواز السفر وأمهلني يومين قبل أن يقدم جواز السفر إلى القنصلية حتى أحضر له المبلغ أو جزءا منه بشرط ألا يقل عن خمسين بالمائة، أبلغت صديقي أحمد إسماعيل عن

تطورات الأمر، فقام بجمع مبلغ الجمعية وأعطاني إياه بناقص مبلغي أي أعطاني خمسة آلاف فقط وقال: أنت أول من يحصل عليها لا تخذلني أمام الناس.

تبسمت له وشكرته وقلت له: سوف أرسل لك المبلغ كل شهر بمشيئة الله.

أخبرت أهلي الذين رأيت في أعينهم مزيجا من الحزن والسعادة، سعادة لأنهم يعلمون ما أعانيه في مصر منذ تخرجي وحزنًا على فراقي.

سألتني أمي: "لماذا لم تخطِب قبل أن تسافر؟".

ضحكت لها بضحكة هستيرية وقلت لها: " ادعي الله أن أكمل باقي المبالغ المطلوبة مني للسفر".

خلال شهر كنت قد أكملت جميع أوراقي ودفعت للمكتب كل ما طلبه ودفعت كل ما تبقى معي من أموال على الكشف الطبي وغيرها من المطالب الأولى للسفر.

يتبقى التذكرة، أخبرني بأن العقد مكتوب به العودة فقط على صاحب العمل، عندما سألته ولكني لم أنتبه لهذه النقطة وكأني أول مرة أعلمها، أرسلت رسالة على جوال أبي طلال أخبره بأنه ليس لدي مال لكي أحجز تذكرة فهل من الممكن أن تتكرم بذلك.

لم يجبني ولم يرد، والمكتب يخبرني بأنه ليس لديهم علم بذلك، فقررت أن أنتظر أياما حتى يدبر الله الأمر.

انتظرت أسبوعا ثم قررت السفر برًّا عن طريق الأتوبيس والباخرة، ذهبت إلى مكتب حجز تذاكر وسألته عن الأسعار فقال لي: "أي مدينة"، فأخبرته بواجهتي الرياض؛ فقال لي: أربعمائة وخمسون جنيهًا.

رجعت إلى البيت أفكر كيف سأجمع ذلك المبلغ بعد أن لم يتبقَ معي أي شيء، حدثت نفسي أن الأمر لا يقف أبدًا على ذلك، يدبر الله الأمر.

في المساء أخبرت والدي بالأمر فقام مسرعًا وأتى بمبلغ خمسمائة جنيه وأعطاني إياه، فرفضت في بداية الأمر إلى أن أصر هو على ذلك، وقمت سعيدًا وذهبت في الصباح إلى حجز تذكرتي البرية.

(الفصل الثاني)

تذكرة برية

حجزت التذكرة والآن جميع أوراقي مكتملة، كان قد بقي على السفر أيام قليلة شعرت ذات مساء بأنني أريد أن أمزق كل هذه الأوراق بما فيها جواز السفر الخاص بي، شعرت بجنوني تلك اللحظة، توقفت عن عبث الأطفال الذي انتابني، تذكرت مرارة الأيام التي عشتها بمصر ولحظات الفراغ القاتلة التي مرت عليّ.

أفقت لنفسي، كفى تهريجًا في الأمور المصيرية، ولنتوكل على الله في سفرنا، هكذا أحدث نفسي كل يوم إلى أن جاء يوم سفري، أتذكره جيدًا لا أنساه ما حييت، كان السادس من مايو عام ٢٠٠٤ أتذكر أنه كان يوم الخميس وموعد الأتوبيس الذي ينقلني لميناء سفاجا كان في الثانية عشر ظهرًا من منطقة ألماظة، كانت قدماي لا تحملني وسرعة ضربات قلبي في ازدياد، وجميع أفراد بيتي متأثرون، وأمي تبكي في أقصى الغرفة، والجيران يودعونني، وبعض أصدقائي يذهب معي إلى المحطة، تلك التي تقودني ناحية الهاوية، أعلم جيدًا أن هناك لحظات في حياة الإنسان لا يعود بعدها كما كان قبلها أعتقد أن هذه اللحظة كانت بالنسبة لي.

السفر كما يقولون قطعة من العذاب ليس في مشقة السفر وحده، ولكن السفر يعني عدم الاستقرار ربما كانت الأسفار قديما أبشع من ذلك ومعاناة كبيرة عندما كنت أقرأ في كتب الصحابة والتابعين وأجدهم يجلسون شهرًا من المدينة المنورة إلى الشام على الناقة ومعهم الزاد والطعام والشراب، لم أتخيل كيف لو كُنا مكانهم الآن وكيف ستكون حجم المعاناة وإذا كنت أسافر عن طريق الباخرة والتي هي أشد تعبًا ممن يركب

الطائرة، وعلمت لماذا يرخص الله لنا الإفطار في السفر؛ لِكَم هذا العناء الذي نلاقيه فيه.

في محطة ألماظة حيث الوداع الأخير يبدو أن مصر كلها في حالة سفر حيث الزحام الشديد مع كل فرد يسافر مصطحبا معه على الأقل خمسة أفراد ربما أنا الوحيد الذي معه اثنان، ودعت صديقي أحمد إسماعيل الذي أصر على الذهاب معي للمحطة وصديقا آخر منذ أيام الجامعة، لم يتمالك أحمد دموعه عند لحظة صعودي سلم الأتوبيس، دقائق قليلة وقد اكتمل العدد وتحرك الباص بنا ناحية سفاجا، يبدو أثر الحزن على كل من هم في الباص باستثناء قديمي العهد بالسفر، ربما أصبح الأمر لديهم عاديًّا فيضحكون ويأكلون ولا يحملون أي هم مما أحمله ربما كان لحظة خروجهم من بيوتهم فقط، ولكني كنت أغبطهم في سري كنت أتمنى أن أكون متبلد المشاعر وأنا خارج من هذا الوطن.

وصلنا محطة سفاجا، يبدو أن مدينة سفاجا هادئة أو ربما نحن أهل القاهرة عندما نزور أي مدينة أخرى غيرها نشعر بالهدوء لابتعادنا عن الضوضاء والزحام الشديد والعوادم، ولكن سرعان ما تحول الهدوء إلى زحام شديد عندما دخلت ميناء سفاجا وجدت زحامًا أضعاف أضعاف ما وجدته في محطة ألماظة ربما هذا تجمع كل محطات مصر في انتظار الدخول، بقينا بالخارج ما يقارب الساعتين ثم تم فتح البوابة الكبيرة ثم قام أمناء الشرطة بالعصبية المعتادة والسب واللعن حتى كبيرهم كان يحمل رتبة رائد كان ضغط الناس عليه شديدا فخرج عن حالته ولعب

الشيطان به لعبًا شديدًا، ثم قمنا بإعداد طابور كبير وجدت نفسي في منتصفه لم أكن أتوقع أن هذا الطابور ينتهي اليوم كنت أتوقع أن تذهب الباخرة وتتركنا.

يسر الله لنا هذا الطابور العظيم وتم ختم جواز السفر وتوجهت إلى الباخرة مع سرعة نبضات قلبي كأول مرة أدخلها، ولم أجد كراسي كما كنت أتوقع بل وجدت ازدحاما شديدا والناس تجلس على الأرض، اتخذت مكانًا في جانب من الجوانب وجلست كما يجلسون، لا تجد مثل ذلك في أي مكان في بقاع العالم، لم نعامل كبني أدمين قط.

كان من المتوقع أن تصل الباخرة في حدود الست ساعات كما يقولون، ولكن ظلت هكذا في البحر ما يقرب من العشر ساعات في هبوط ونزول مع موج البحر العالي طوال الليل، والناس تهرب إلى الأعلى وتنظر ماذا سيحدث، إلى أن وصلت ميناء ضباء كانت الساعة تقترب من الحادية عشر، نزلت من الباخرة أشعر بحرارة شديدة وكأنها ماء يغلي فوق قدر يوقد منذ ساعات، ما لحظته لون المياه كان جميلًا للغاية، البحر الأحمر الذي ودعته الآن على شاطئ سفاجا أستقبله بشكل آخر على ميناء ضباء.

نزلت من الباخرة ووجدت لوحة كبيرة في مقدمة رؤيتي، كانت لوحة ضخمة للغاية ربما كان تحذيرًا شديد اللهجة مكتوب فوقها (عقوبة المخدرات الإعدام) تنبيه قوي لمن يأتي إلى هنا إلى بلاد الحرمين، شعرت بفرح شديد عندما قرأت هذه العبارة، قبل أن أدخل الميناء تذكرت دعاء دخول البلدة الجديدة فقلت بصوت منخفض: "اللهم رب السماوات السبع

وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذَرَيْنَ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها".

دخلت الميناء على وجلٍ ولكني وجدت معاملة من رجال الشرطة والموظفين السعوديين تختلف تمامًا عما أجده من رجال الشرطة في بلدي، فإني كمعتاد على طوابير مصر الحكومية لم يمر طابور حكومي إلا وبه من سوء المعاملة ما لقيت، إلا عندما وجدت نفسي في طابور ميناء ضباء وجدت احتراما متبادلا من الطرفين عندما أرادوا أن نلتزم وأخبرونا أن من يدخل المملكة أول مرة يتجه إلى ذلك الصف ومن ليس كذلك يتجه إلى هذا المكان، وجدت الناس تفهم وتنفذ بهدوء ما يقولونه، شعرت بأننا كمصريين نلتزم بالقوانين الخارجية عندما نخرج من ديارنا فلماذا لا نلتزم بالقوانين الداخلية؟! أهي سوء تعامل منّا أم سوء تلقين؟ تذكرت في ذلك الموقف عندما يقول لك شخص: "الصلاة الصلاة جزاك الله خيرًا"، وشخص آخر يقول لك: "الصلاة الصلاة حتى لا تلسعك النار"، الأسلوب المقدم من الشخص الذي أمامك سواء أكان داعيًا إلى الله أم داعيًا إلى عمل دنيوي هو من يحدد تبعاته منك إما أن تقبل باحترام وإما أن ترفض إذا كنت تملك الرفض أو تفعل ما يأمرك به على مضض منك.

انتهى الطابور وكل شيء يتعلق بخروجي من الميناء إلى أن وصلت لمكان استلام حقائبي ووجدت الأرض مليئة بالعسل والحقائب قد أصابها ما أصابها من ذلك العسل، لم أفهم ما الأمر إلا بعد أن علمت أن أغلب

المصريين يأخذون معهم عسلا داخل حقائبهم وربما لا يجيد البعض تغليفها جيدًا ومع الضغط على الحقائب انفجرت علب العسل داخل الحقائب وبالتالي تسربت إلى الأرض فامتلأت الأرض بالعسل وكان ما كان.

يتبقى الآن كيف أصل إلى الأتوبيس الذي ينقلني إلى الرياض، تلك العاصمة الكبيرة التي بها تكون شركتي الصغيرة التي جئت إليها محملًا بالآمال والطموحات الكبيرة، وعندما خرجت من الميناء وجدت كمية كبيرة من الزحام حول كل أتوبيس، أشعر كأنني تائه في وسط زحام كبير من الناس وسألت أحد الأشخاص غير العربي: "أين باص الرياض"، أجابني وكان أول من تكلمت معه غير عربي، قال بنبرة حديثة لدي: "صديق هذا باص رياض".

ذهبت إلى الباص أسأل السائق: "هذا باص الرياض؟".

أجابني بدون صوت هز رأسه بالقبول، كان فلبيني الجنسية ملامحه معروفة للجميع، أخذ مني جواز السفر والتذكرة ولم أفهم لماذا أخذ مني جواز السفر ولكني وجدت كل من سبقني بالركوب إلى الباص أعطاه جواز السفر فأعطيته وأنا مطمئن ثم أشار بأن أضع حقائبي أسفل الباص.

صعدت الباص ووجدته قد قارب على الامتلاء، ثم جلست في مقعد بجوار شاب يبدو عليه أنه ليس كأول مرة يسافر؛ لم يظهر عليه أثر القلق مثلي بل بدا مبتسمًا يشير إليّ بأن أجلس بجواره، كانت حفاوة استقباله في المقعد المجاور كمن يضايفني في قصر يملكه لا لشيء إلا أنني كنت مقبوض

القلب شارد الذهن لدي تساؤلات وتخوفات كثيرة، أريد أن أرتاح ولو قليلًا من مشوار يبدو أنه الأطول في حياتي.

اكتمل العدد ونطق السائق كل اسم من أسماء الركاب على حدة وتأكد من وجود الجميع ثم تحرك، وبدأت تظهر لنا معالم شبه الجزيرة العربية على طبيعتها التي كنا نراها في الكتب والخرائط، صحراء شديدة القحط لا يوجد بها شيء على الإطلاق جبال وصخور تميل جميعها إلى اللون الأصفر مع الحمرة، ومررت على مناطق بها صخور كالجرانيت وصخور متصدعة وصخور متآكلة وربما قد تجمعت جميع أنواع الصخور في هذا الطريق لم أرَ أي شيء مخالف للون الأصفر إلا لون السماء ولون الأسفلت ذلك الأسفلت الذي تكاد حرارته تغلي من هذا الطقس الحار، مر من الوقت ما يقرب من الساعتين وتكلم السائق بأن هناك استراحة ننزل بها قرابة النصف ساعة الرجاء من الجميع عدم التأخير، نصف ساعة فقط.

نزلنا استراحة كبيرة بها مصلى رجال ونساء مع دورات المياه ومطعم كبير وسوبر ماركت وبعض المحلات المجاورة لبيع بعض أغراض الرحالين، فذهبت للصلاة جمعًا وقصرًا ثم وجدت شخصًا يبدو عليه أنه من الشام لا أدري بالتحديد من أي بلد يكون، سألته: "نحن في أي محافظة الآن؟"، قال لي: "نحن في تبوك".

تبوك تبسمت لأن الاسم عالق لدي منذ القدم منذ أن علمت بغزوة الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، مدينة هادئة وجميلة تبدو عليها

معالم مصر طقسها قريب من مصر خاصة بعد صلاة العصر وقرب المغرب شعرت بأننا في مصر.

انتهت النصف ساعة وتحرك الباص مسرعًا يقطع أشواطًا كبيرة وجميع من يركب معي ذهبوا للنوم وكأنهم لم يناموا منذ سنين، وأنا لم تغمض عيني قط، مرت الساعات تلو الساعات حتى وصلنا لمحطة النقل الجماعي بالرياض، تلك المحطة العملاقة التي بها جميع اتجاهاتك نحو المحافظات الأخرى.

نزلت من الباص وأخذت في يدي حقائبي واتجهت نحو الصالة الكبيرة ووجدت عاملا هنديا يمسك بلوحة صغيرة يدون عليها (أكرم حسني) ذهبت إليه وتبسمت له وقلت: "أنا أكرم"، قال بلهجة عربية بها عرج: "كيف حالك حبيبي، أنت كويس؟".

-الحمد لله... نعم بخير

- تفضل معي.

اتجهت معه وأنا أحمل حقائبي الذي ساعدني في حملها ذلك العامل الذي يبدو مبتسمًا وتعجبت من نفسي كيف لكل هؤلاء الناس يبتسمون وأنا لا أبتسم؟ هل لهذه المرة الأولى كل هذا النصيب من العبس أم هم اعتادوا على الغربة فأصبح مألوفا لديهم كل ما يحدث يوميًّا فأصبحت الغربة لهم سكنًا جديدًا وبلدًا آخر؟

تسير السيارة في شوارع الرياض التي تشبه كثيرا من العواصم المزدحمة وبعض الأنفاق والكباري ولكن يبدو أن الشوارع والمرور أفضل بكثير من مصر يبدو عليها النظام وإن كان الزحام هو السمة المتوفرة في كل عواصم العالم وبالتأكيد لا تختلف عنهم الرياض، كنت راكبًا بجوار العامل الهندي أنظر حولي في الشوارع والمحلات التي أشاهدها لأول مرة والعامل الهندي مرة يحدثني ومرة يتحدث في هاتفه بلغة التي لا أفهم شيئا منها ولكني بعض الوقت سمعت اسمي من بين أحاديثه عندما غير لغته إلى الإنجليزية.

في وسط الحديث قال لي: "صديق حزام حزام"، أي اربط حزام الأمان، لم أعتد عليه من قبل.

كنت شارد الذهن قليلًا والسيارة تمشي بين الشوارع الكثيرة والغريبة كل شارع به لوحات ومسميات وجدت أسماء لبعض الشوارع غريبة وبعضها متشابه وأسماء لكل حي حتى وصلت لحي "الملز" ذلك اسمه، فوجدت إستادا كبيرا لكرة القدم، نظر إليّ العامل وأشار إلى الإستاد وقال: "هذا Football".

فهمت مقصده ثم توجه إلى مقر الشركة قال لي: "دع حقائبك هنا"، أي في السيارة وأن أحمل فقط جواز السفر معي بالداخل.

دخلت الشركة، شعرت بقبضة في قلبي لا أدري ما أسبابها، كنت منهكا للغاية تماسكت ومررت على مكاتب كثيرة بها موظفون من جنسيات شتى حتى وصلت لمكتب مدير الشركة، ذلك الكفيل الذي رأيته في مصر يلقب

بين الجميع ب "أبو طلال"، توجهت له قابلني بترحاب في مكتبه الأنيق قال لي:

- أهلين أستاذ أكرم... حمد لله على سلامة الوصول.

- الله يسلمك.

- كيف كانت الرحلة أستاذ أكرم.

- الحمد لله مرت بسلام.

- أعطني جواز السفر الآن واذهب إلى السكن لكي ترتاح ثم في الغد نبدأ في إجراءات الإقامة.

أعطيته جواز السفر وخرجت مع العامل الهندي وعند خروجي وجدت شابا مصريا أنيق الملبس يبدو أنه قديم هنا يظهر عليه التبسم قابلني مبتسمًا قال: "سلام عليكم معك أخوك خالد حسن، مصري من سوهاج أعمل هنا مع أبي طلال.

تبسمت له قلت له: "أكرم حسني من القاهرة"، ثم أخبرته سنكمل تعارفنا فيما بعد حيث إنني لا أستطيع الوقوف الآن من كثرة الإرهاق.

ذهب بي العامل الهندي إلى سكن العمال والموظفين حيث يوجد السكن في منطقة قريبة من مقر الشركة ربما ثلاثة شوارع للخلف من الممكن إذا كان الطقس جيدا أن تسير على الأقدام، ذهبت معه وأعطاني العامل مفتاحا لغرفة بها شخص آخر مصري لا أعرفه وقال لي: "هذه غرفتك وهذا سريرك"، وذهب العامل وتركني لحالي في هذا السكن الغريب،

يبدو على السكن أنه قديم عبارة عن شقق فوق بعضها في مبنى خاص بأبي طلال هذه الشقة خاصة بالعرب أو ببعض العرب لأنه يوجد أكثر من شقة تخص الموظفين العرب وكل غرفة بها أكثر من شخص ويوجد مطبخ وحمام داخل كل شقة ويوجد أيضا في الشقة التي دخلتها صالة كبيرة بها جهاز تليفزيون ومقاعد بألوان مختلفة لم أفهم سبب اختلاف هذه الألوان، توجهت للنوم بعد أن أزلت أثار السفر من على جسدي المرهق وشرعت إلى النوم ولم أفق حتى الساعة الثامنة مساءً.

وجدت شخصا يتحدث في الهاتف بجواري، كان مشغولًا لدرجة أنه لم يرني حينما استيقظت من نومي، ألقيت عليه السلام فقال: "وعليكم السلام".

ترك الهاتف قليلًا من يده ونظر إليّ وقال:

- حمد لله على سلامتك.

- الله يسلمك.

-أنا باسم صبري

تبسمت له وقلت:

- أنا أكرم حسني من القاهرة، من أي محافظة حضرتك؟

- من المنصورة.

تبسمت له وذهبت إلى دورة المياه في الخارج المطل بابها على الصالة وتوضأت لكي أصلي سألته عن اتجاه القبلة فأخبرني ناحية الغرب يسارًا قليلًا، شرعت إلى الصلاة لكي أصلي ما فاتني من صلوات كثيرة طوال اليوم المرهق هذا، وعندما شرعت إلى الصلاة بدأ قلبي يخفق، شعور غريب انتابني لم أشعر به من قبل، أشعر وكأنني أريد أن أصلي كثيرًا أريد أن أتقرب إلى الله أكثر أريد أن أدعو أكثر أشعر بالضعف والخوف لا أدري لماذا نحن البشر بعضنا يتقرب إلى الله أكثر في لحظات الضعف والخوف فقط؟! ربما لأننا ننسى! ننسى نعم الله علينا فعندما نرتخي نترك العبادة ونلهو في الدنيا ثم عند المصائب أو الضعف نرجع نادمين مكبلين ورافعين أيدينا نحو السماء يا الله يا الله ثم يلطف الله بنا ويكشف كُربنا ثم ننسى ونعود مرة أخرى ثم ننسى ومنّا من يتجبر ويزداد بعدًا ومنّا من يتحجر قلبه.

شعرت بالحنين إلى أمي وأبي كم أنا جاهل بكما ولا أعرف قيمتكما، دائما نحن هكذا لا نعرف قيمة الأشياء إلا عندما نفقدها أو نُحرم منها، أتمنى الرجوع إلى مصر الآن أريد أن أقبل جبين أمي ويد أبي أين أنتما يا من تمنعان عني كل هذا الشر في العالم؟

شعور غريب مع الساعات الأولى من انفرادي بوحدتي القاتلة، ما زال قلبي خافق يشعر بهذيان وتيه بين جدران الغربة الجديدة ربما أحتاج لبعض الشهور والأيام لكي نتألف مع هذه الجدران والوحدة الجديدة.

شرعت في الصلاة، رفعت يدي وقلت: الله أكبر.

إحساس الكلمة كأنه أول مرة أسمعها في حياتي سمعتها اليوم لأول مرة، الله أكبر حقًّا أكبر من أي شيء في هذا الكون أكبر من الأعمال والأسفار والكفيل الذي لم أعرف ما يخبئ حتى الآن، أكبر من أحزاني وهمومي أكبر مما أعانيه بداخلي، الله أكبر حقًّا وصدقًا.

انتهيت من الصلاة، شعرت براحة تسري في بدني، جلست في الصالة الكبيرة التي يوجد بها جهاز تليفزيون ومقاعد بأشكال مختلفة، لحظات وجاء رجل كبير بالسن يبدو عليه أثر الغربة أو أنه هنا منذ زمن، قابلني بترحاب شديد، اقترب عمره من الستين على ما يبدو لي؛ شعره أبيض به بعض السواد قابلني بابتسامة ثم جلس في مقعد علمت أنه مخصص له فيما بعد، تبسم وقال:

- حمد لله على سلامتك، أنت أكرم؟

- الله يسلمك... نعم تمام.

- أنا عمك سيد من بني سويف عايش هنا منذ ثلاثين عامًا

سمعت الرقم، ذهلت منه، ثلاثون عاما! يا الله:

- كيف تحملت كل ذلك؟

تبسم قائلًا: "ستعرف فيما بعد عندما تمر من بين يدك الأعوام تلو الأخرى وأنت مجبر على الجلوس لا تستطيع أن تتخذ قرار العودة، وأبناؤك كل يومٍ احتياجاتهم تزداد، ومطالب بتعليم وملابس وطعام وجامعة وإيجارات وما إلى ذلك من مطالب لا تنتهي.

أخفقت رأسي بأن ما يقوله صحيح في الغالب عند كثير ممن يضطر بهم السفر، خاصة مع ضعف إيمانهم بأنهم لا يجدون أعمالا في أوطانهم أو حتى لا يثقون في أن مشاريعهم ستنجح.

قال لي:

- أنا لدي ثلاثة أبناء محمد وأحمد وأمل.

- ما شاء الله، أسماؤهم جميلة.

قال لي ضاحكًا: "ومطالبهم أجمل".

- ربنا يحفظهم ويبارك فيهم يا عمي سيد.

شعرت بارتياح شديد لعمي سيد صاحب الستين عامًا والثلاثين في الغربة، كان بمثابة عوض كبير عما فقدتهم في مصر ويكفي كمية المعلومات الكبيرة والخبرات التي أتلقاها منه.

ذهبت إلى العمل في اليوم الثاني وقام السكرتير الفلبيني بإعطائي كافة تفاصيل عملي وعرفني مكان مكتبي كان بجوار بعض المصريين الذين لم أتعرف عليهم بعد، شعرت أن هناك شخصا مصريا ينظر إليّ بغضب شديد كلما نظرت إليه، ذهبت إليه عرفته بنفسي فرد متجهما: "أنا معتز هاشم محاسب أيضا معك هنا".

يبدو أنه لا يريد الحديث معي؛ تركت مكتبه ورجعت إلى المكتب الذي خُصص لي.

رائحة هواء التكييف أجدها في كل مكان لا أقصد الهواء البارد الذي يخرج منه أقصد أن بداية أيام الغربة مع هواء التكييف أرتبط لدي برائحة جديدة لم أعتدها من قبل، ستظل هذه الرائحة في أنفي وتبقى ذكرى مع بداية عملي هنا، المهم أنني بدأت أول خطوة في أول يوم لأنني كنت أخشى أول يوم عمل هنا.

بعد فترة من الوقت تفاجأت بخالد حسن ذلك الشاب الذي قابلني بالأمس عندما كنت مجهدًا لا أرى أمامي، يبدو أنه مختلف تماما عن معتز هاشم، هو من جاء بنفسه إلى مكتبي وسلم عليّ بترحاب شديد وابتسامة عريضة تكلمنا كثيرًا ثم سألته عن معتز قال لي: "إنه مريض نفسيًّا، من الأفضل أن تتجنبه ولا تتحدث معه، يكره كل الناس هنا ولديه مشاكل مع كل الناس لا يحب أحدا يريد أن يكون لوحده بالشركة لا أدري كيف وإنما هو كذلك".

لا حول ولا قوة إلا بالله، من أولها كده أمراض نفسية، سألته من أي مكان معتز في مصر ؟ أجابني: المنصورة، فكرت قليلًا فيما قاله وتذكرت أنه يبدو أن هناك أعمالا كثيرة مشتركة بيني وبين معتز، لم أتفاءل بشأن هذا الموضوع.

انتهى اليوم الأول من العمل بشيء من التفاؤل المبدئي، تعرفت فيه على كثير من الهنود والفلبيين والباكستان والبنجلاديش بخلاف العرب المصريين والسوريين وأخينا عدنان اللبناني.

ذهبت إلى البيت لا أعرف كيف أتناول الطعام ربما لا أفهم كيف تسير الأمور مع الشباب في نظام الأكل، ذهب إلى البيت ووجدت أغلب المصريين في غرفة المطبخ يصنعون طعامًا باستثناء عم سيد ومعتز وكل واحد يصنع لنفسه الطعام الخاص به ولا أحد يتناول الطعام مع الآخر، تعجبت من ذلك سألتهم: "لماذا لا نأكل مع بعض مرة واحدة؟"، تبسم أحدهم وقال: "الجميع هنا مختلفون في أذواق الطعام وأوقاته بمعنى أنك لا تستطيع أن تجمع اثنين على طعام واحد في وقت واحد ومشتركين في حب هذا الطعام".

لم أقتنع بما قاله ولكن تركت كل واحد كيفما يحب، وسألتهم: "أين أجد المطاعم حول المنزل؟" فأجابني أحدهم ووصف لي المكان.

ذهبت إلى أحد المطاعم في المكان المجاور للمنزل وجدت مطعما كبيرا جدا ويكتب عليه أسماء الأكالات التي يقدمها دخلت المطعم ووجدت طاولات كثيرة وركنا على اليمين مفروشا بسجاد أحمر مرتفع ما يقارب النصف متر عن الأرض يوجد به مساند إسفنج من الخلف يجلس عليها بعض السعوديين والأجانب وعلى الطاولات يجلس بعض الزبائن الأخرى، جلست على إحدى الطاولات وجدت قائمة الطعام أمامي تفحصته لم أفهم الكثير منه، جاء عامل يبدو عليه أنه من أفغانستان يفرش على الطاولة كيسا بلاستيكيا (سفرة)، نظر إليّ متبسمًا وقال: "أيش أكل"، يعني ماذا تأكل؟

إلى الآن لم أعلم ماذا آكل ولا الأسعار، سألته:

- ماذا لديكم؟

أجاب بلغة عربية ركيكة لا أفهمها كلها ولكن فهمت أنه يوجد لديه (كبسة) هكذا قالها وكأنها شعبية كل من يدخل يأكلها فهززت رأسي بأني موافق على ذلك.

دقائق قليلة ثم رأيته يحمل طبقا كبيرا فوقه أرز بلون أصفر وقطعة من الدجاج المشوي في الفرن مع بعض السلطات الخضراء والليمون والبصل، فتناولت الطعام وشعرت باختلافه بعض الشيء ثم تذوقته فيما بعد.

رجعت إلى المنزل وجدت أغلب الموظفين ينامون ومنهم من ليس بالمنزل، فكرت قليلًا ثم لم أتمالك نفسي من جو النوم، استيقظت في صلاة العشاء، ذهبت إلى المسجد المجاور، الناس دفعات كبيرة أغلبهم من الجنسيات الأجنبية هنود وبنجلاديش وفلبيين وقليل من العرب ولكن المسجد لا يخلو من المصريين في العادة ولكن قليل جدًّا من السعوديين ولا أعلم السبب على ما أعتقد أنه هم المفترض أكثر الناس ولكن لم أجد ذلك، وجدت الإمام ذا الصوت الشجي يصلي تلاوة عذبة من سورة آل عمران:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٠

لم أتمالك نفسي حين سمعت هذه التلاوة وهذا الصوت مع اختيار هذه الآيات تساقطت دموعي، ربما تجمعت كل الآلام التي في قلبي فخرجت

مع سماع هذه الآيات فاهتز لها كياني كله وظللت أبكي بحرقة حتى انتهى الإمام من الصلاة، خرجت من الصلاة وكأني كنت تحت المطر وراحة تسري في جسدي كله.

رجعت إلى المنزل تذكرت أني لم أتصل بأهلي في مصر أطمئنهم عليّ، سألت على أقرب تليفون ممكن أتصل منه، أخبروني أن السنترالات التي أريدها بعيدة بعض الشيء وقليلة لأن أغلب الناس هنا لديهم جوالات فقلت له: "أوصف لي العنوان إلى أن أشتري شريحة اتصالات سعودية"، وصف لي العنوان وذهبت إلى السنترال الصغير ذي الغرف الصغيرة المتجاورة ولا يوجد به زبائن إلا القليل من الناس، شرعت بالاتصال ولم يجب عليّ أحد، كررت المحاولة إلى أن رددت أمي في لهفة ولم تتمالك نفسها من البكاء ولم أجد أبي في هذا اليوم، عدت إلى البيت ما بين الفرح بسماع صوت أمي وبين الحنين إليها وإلى بلدي، هل لنا اختيار فيما نمشي تلك الخطوات التي نخطوها مكبلين، نسعى ونركض خلف الحياة نتصارع من أجلها ثم نتركها دون سابق إنذار، نرحل في صمت، في الغالب لا نستمتع بما نجري خلفه، لأننا مشغولون بجمعه غير متفرغين لنقف ونفكر لماذا لا نعيش الحياة بما قدره الله لنا؟! ربما الرضا، نعم هو الرضا الذي ينقص البشرية، الكثير منا يكرر الحمد ولكن الحمد يخرج من اللسان دون القلب فتجدنا تعساء حزناء لم نسعد مهما امتلكنا ومهما حققنا لأننا ببساطة لم نحقق الرضا المطلوب، الرضا الذي نستسلم به لقدر الله لنا وتدبيره لنا وخيرته لنا.

في البيت مع مرور الوقت بدأ يظهر محبة عم سيد ليّ، كان يجمعنا جلسة أمام التليفزيون كل يوم بعد صلاة العشاء، يحكي لي عن خبراته في الحياة وعن أولاده وزوجته، ولكني لم أكن بالقدر الكافي من الوعي لأستقبل كل هذا القدر الكافي من الخبرات والعمل بها، كنت معجبًا بشدة بحكمته في الحياة وكنت أتعجب كيف وصل لهذا العمر دون عودة إلى موطنه والاستقرار بين أولاده، كان يحدثني كل يوم عن أخطائه في الغربة وكيف تعلم منها ولكن بعد فوات الأوان، في بداية نصائحه حذرني من المصريين في الغربة، تعجبت منه وقلت: "أهم بكل بهذا السوء"، قال لي: "ستعرف مع الوقت، أسوأ شيء في المصريين هنا أنهم ضعفاء الإيمان لا يثقون أن الأرزاق بيد الله وحده يفعلون كل المؤامرات حولك ويفعلون الدسائس بينك وبين صاحب العمل حتى يكرهك أو يفصلك عن العمل أو يؤثرون عليك بأي شكل ممكن لسوء فهم منهم بأن ذلك يزيد في رصيد أرزاقهم فهم للغباء أقرب".

ومن يستطيع أن يزيد في الرزق غير الله وحده وما فائدة كل تلك الحيل التي تعبر عن مرض قلوبهم ولكن الشيء المحزن حقًّا هو لماذا يأذون بعضهم وهم أبناء وطن واحد وأصحاب دين واحد على الأغلب.

حذرني بشدة منهم وخاصة أنهم موجودون بكثرة داخل شركتنا الصغيرة وليس الجميع فيهم يحب الخير ولا تثق بكلام بعضهم المعسول، ستظهر لك الأيام من الجيد ومن السيئ، كان أكثر التحذيرات حول معتز ابن المنصورة البار الذي استطاع أن يجبر الجميع على كرهه ليس لشيء إلا

من تصرفاته المريضة، كنت متوقعا أنه لن يتركني في حالي قط وتوقعت منه أول ضربة من تحت الحزام، بدأت أستعد لكي أتأقلم مع الجو الجديد المشبع بعدم الحب، وحقًّا أكثر تنازل أن تقدمه هو أن تتأقلم، تتأقلم مع الواقع المخيف الواقع المر ذي الغدر والكراهية وحب النفس المشبعة بالأمراض وتلك القلوب التي ما زالت غير نقية، لا شيء كان يزيد من مخاوفي إلا أنني أخشى أن أتغير مثلهم وهل أستطيع أن أضر إنسانا وخاصة لو كان مغتربا، كنت أخشى من معاشرة هؤلاء القوم أن أصبح مثلهم وأتأثر بأفعالهم.

كنت قد تجاوزت العشرة أيام في أوساط هذا العمل وقد كلفني أبو طلال بالذهاب مع أحد السائقين إلى مركز الطباعة لطباعة بعض الأوراق الخاصة بالعمل ولكن لم أكن بالخبرة الكافية لأعرف خبايا هذه الأعمال وكان العمل مشتركا بيني وبين معتز وكانت تكلفة هذه الطباعة ما يقارب الألفي ريال ومع قلة الخبرة ذهبت إلى المركز دون أن أعرف أن الأوراق لا بد من مراجعتها باللغة العربية والإنجليزية ومطابقة ذلك وكان يعلم ذلك معتز فلم يخبرني بذلك وتركني أقوم بطباعة العمل وعندما رجعت به إلى الشركة غضب أبو طلال غضبا شديدا وقال: "كل هذه الأوراق خطأ لماذا لم تراجعوها؟"، ولكنهم حملوني أنا وحدي الخطأ على أساس أنني قمت بالطباعة دون الرجوع لأحد، وأمر بخصم المبلغ كاملا من راتبي ولكنه كان رؤوفا بحالتي فقد قرر أن يخصم المبلغ على دفعات.

صدمت من القرار ولكن ذهبت إلى معتز أسأله:

- لماذا لم تقل لي: راجع باللغة العربية مع الإنجليزية؟!

تبسم ابتسامة خبيثة وقال: "إتعلم يا حبيبي".

لم أتمالك نفسي مع هذه الكلمات الخبيثة من شخص مريض هكذا وقمت بكل قواي وضربته ضربة قوية بمقدمة يدي في صدغه الأيمن وهممت أن أكمل عليه فوجدت التفاف الموظفين حولي وإبعادنا وهو الآخر قام بمحاولات الرد ولكن لم يتمكن وتوعدني فيما بعد.

بعد عشر دقائق طلبنا أبو طلال في اجتماع مصغر وقام بخصم من كل شخص منّا خمسة أيام، شعرت بأنني بهذه الحالة لم يتبق لي حتى ما أرسله لصديقي أحمد إسماعيل بخصوص الجمعية التي أخذتها قبل السفر.

رجعت المنزل في أسوأ حال، وجدت عم سيد الذي علم بكل ما حدث من المصريين الموجودين معنا في الشركة ولكنه يعمل دائما خارج الشركة في تخليص أوراق البنوك ومستحقات الشيكات وخلافه.

عاتبني جدًّا بالكلام بكل ما حدث خاصة قال لي: كيف تطبع منشورات بروشور بدون أخذ توقيع من صاحب العمل نفسه وتخرج من كل هذه المشاكل، لا تفعل مرة أخرى ذلك، هنا يا "أكرم" الناس ينتظرون لك الخطأ وقد وقعت في أول فخ منهم، اسألني أو اتصل بي عندم تشك في الأمر.

لا تكن طيبًا أكثر من اللازم في هذه الحياة يلومونك على أنك صادق وطيب والناس لا يحبون ذلك، الناس يخشون دائما الظالم والمفتري والمتلاعب بهم إنهم لا يحبون مَن يصدق الحديث، مَن يقول ما في قلبه،

وليست النوايا الطيبة دائما تقود إلى الخير ربما يا بُني تكون نيتك طيبة ولكن من حولك يفسدون عليك كل شيء جميل لأن قلوبهم سيئة أكثر من اللازم.

شردت بذهني بكلام عم سيد حتى وجدته يقول لي: يا أكرم يا ابني أنت طيب في واقع عفن أرجوك خلي بالك من نفسك في هذه الأوساط إنها لا تقبل الطيبين أمثالك كن حذرًا مما يقولون لك وفكر كثيرًا في الأمر قبل أن تتخذ القرار، اعلم يا بُني أن خبرتك ضعيفة وأنك ما زلت جديدا في الغربة ولكن تعلم من هذه الدروس حتى لا تصرعك الحياة.

الفصل الثالث

(جريمة قتل)

في اليوم الثاني للخلاف الشديد والمشاكل التي حدثت مع معتز ذهبت إلى العمل، ألقيت السلام على الجميع لم يرد من بينهم معتز، لم أفكر في الأمر كثيرًا وقررت أن أتعامل بجدية وقلب قاسٍ مع الجميع إذا كان الأمر هكذا سيكون؛ سأتغير مع الجميع حتى يتثبت لي الطيب من الخبيث.

تنتابني فكرة الثأر من معتز، أريد أن أرد له ضربة مثل التي أخذتها من مرتبي ولكن لم أتعود من قبل على الأذى، انتهيت من العمل وذهبت لأشتري شريحة للجوال من شارع الجوالات الشهير هنا على بعد كيلوين سيرًا على الأقدام، ذهبت فوجدت كمية كبيرة من المتاجر والمحلات التجارية التي تقوم ببيع وشراء الجوالات، أغلب من يقفون في المحلات هم من الجنسية اليمنية والهندية، توجهت لأكثر من محل أسأله عن شريحة للجوال، الكثير يقول لي لا يوجد، لا أفهم السبب إلى أن وصلت لمحل يوجد به شخص يمني الجنسية يرتدي ثوبا أبيض وغطرة سوداء منقوشة بالأبيض، لم أفهم كلامه من أول مرة، كان يجب عليّ التركيز والإنصات بقوة لكي أفهمه، يتكلم بسرعه غريبة، بعض الحروف لديه غير صحيحة، يظهر من مخارجه حرف القاف بغرابة شديدة، سألته عن الشريحة قال لي:

- موجودة ولكن ثمنها مائة ريال.

- كيف ذلك؟

استغربت للرقم المطلوب وتذكرت أنه عندما كنت بمصر كانت الشريحة في متناول الجميع، قال لي:

- لأن الشريحة بها رصيد مائة ريال أيضا.

أخذ مني المائة ريال وهم بإخراج الشريحة، في ذلك الوقت دخل علينا ثلاثة شباب سعوديون أجسامهم ممتلئة بعض الشيء لا يظهر عليهم الاحترام من كلامهم وتعاملهم، يمسكون بالأشياء المعلقة في جوانب المحل ويعبثون بها، أخبرهم اليمني الذي علمت أن اسمه ناصر ألا يعبثوا بأشياء لا تخصهم ولكن لم يعجبهم الكلام وقرروا زيادة المشاكل بينهم وبينه ثم تتطاول الأمر إلى الخطأ فيه وشتمه ثم ازداد الأمر بينهم فقام أحدهم بكسر الزجاج الجانبي للمحل، في هذا الوقت أخرج ناصر خنجرا شكله حاد جدا وصغير وقام بإمساك الصبي السعودي من الخلف وقام بتهديده.

كان ناصر يمسك ذقن الصبي باليد اليسرى ضاغطا بقوة عليه واليد اليمنى بها الخنجر ربما هذه المرة الأولى التي أرى فيها الخنجر على الحقيقة، قام الشابان الآخران بتكسير باقي زجاج المحل مهددين ليترك صديقهم، وأنا أقف عند فترينة الزجاج التي كان يحدثني من خلفها ناصر والناس من المحلات الأخرى قد تجمعت وعند حضور الناس قام ناصر بذبح الشاب السمين الذي كان بين يديه ورماه على الأرض.

الناس في ذهول شديد مما يحدث وأنا أقف لا أصدق نفسي ولا أستطيع أن أنطق بكلمة واحدة، الشابان السعوديان يبكيان بحرقة شديدة وترك ناصر المحل وهرب بسرعة البرق والمحل امتلأ بالناس وفي غضون لحظات جاءت الشرطة وسيارة إسعاف.

قامت الشرطة بأخذ الشابين، وسيارة الإسعاف حملت الشاب الذي قُتل، وأنا ما زلت واقفا، أخذني عسكري الشرطة معهم وبعضا ممن كانوا يقفون معنا في المحل، هناك كاميرات في المحل تصور كل ما يحدث.

كان من حسن حظي أن هناك كاميرات بالمحل بالرغم أن كثيرًا من المحلات المجاورة لا توجد بها كاميرات مراقبة.

ركبت معهم سيارة الشرطة ومعي بعض الذين كانوا يقفون بجواري في المحل، بينما الشابان السعوديان ركبوا سيارة أخرى، والإسعاف تحركت نحو المستشفى والشارع امتلأ بالناس والشرطة في غضون دقائق معدودة وأصبح الكل في حالة تأهب، ذهبت إلى قسم الشرطة والكل أعصابه مشدودة جدا، والعساكر والضابط متوترون جدًّا وكأنهم أول مرة يحققون في جريمة قتل هكذا.

تم التوصل لناصر صاحب محل الجوالات وجاء في حالة انهيار شديد، وقفنا نحن في الجانب الأيمن من المكتب وهو بين يديه حديد أساور (كلبش)، أخذ الضابط أقوالنا جميعا وأمر بترك الجميع أن يذهبوا عدا أنا وناصر وكأنني مشترك في الجريمة، قال لي: "أما أنت يا مصري فستنتظر معنا للصباح إلى أن يصل كفيلك ولا تقلق".

حُبِس ناصر في غرفة بمفرده، أما أنا فوجدتني في غرفة كبيرة قد تصل إلى سبعة أمتار يوجد بها أربعة أَسِرة مزدوجة أي كل سرير طابقان ولكن يوجد بهذه الغرفة أكثر من ثلاثين شخصا من جنسيات مختلفة، المكان عفن جدا ذو رائحة كريهة للغاية، لم أجد مكانا أجلس فيه فذهبت إلى

مدخل الغرفة خلف الباب الحديد واتخذت مكانًا وجلست فيه على الأرض، لا أعلم ماذا سيحدث لي في الغد؟ هل سيحضر أبو طلال لإخراجي من هنا أم أنه لا يبالي؟ ساعات قليلة ستفصلنا عن الأحداث المنتظرة في هذه السفرية المشؤومة.

في هذه الليلة سيطر عليّ الحزن بكل تفاصيله، قضيت ليلة سوداء بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كانت ليلة قاسية للغاية، شعرت بقسوة الحياة حولي التي لم تبتسم لي مرة واحدة على الأقل، حظي سيئ جدًّا لدرجة أن الوقت الوحيد الذي قررت فيه أن أذهب لأشتري شريحة جوال يحدث ما حدث، حمدت الله في سري ورطبت لساني بذكره.

لم أكن وحدي ذا حظٍّ عثر في هذه الليلة الحزينة فقد تعرفت على شاب مصري داخل السجن يعمل بنظام الفيزا الحرة التي كنت أول مرة أعرف تفاصيلها تلك الليلة؛ فقد كان يعمل في مجال المقاولات ولكن العمل خاص به وكل شيء يكون باسم كفيله على الورق ومقابل ذلك نسبة من الأرباح ولكن مع زيادة الدخل لدى هذا الشاب طمع فيه الكفيل وبمجرد ما علم أنه انتهى من عمل فيلا كبيرة وحصل على مبلغ التشطيب أخذ كفيله المال كله ولم يترك له شيئا وقال له: "اثبت ذلك أو قدم شكوى لا دليل لديك".

جن جنون هذا الشاب المصري ولم يتمالك نفسه إلا بالضرب المبرح لهذا الكفيل الذي طلب الشرطة وتم القبض على الشاب المصري والآن في

حبسه ينتظر مخرجا حتى ولو تنازل عن كل شيء ولكن كفيله يريد ترحيله بعد حبسه.

لم يكن وحده ذلك المصري، إنما يوجد مصريون آخرون بالحبس وهناك من الجنسيات البنجلاديش الأكثر والبعض من الجنسية اليمنية، لم تسعفني تلك الليلة للتعرف على كل مشكلة من مشاكلهم ولكني استنبطت أن أغلب المشاكل بينهم وبين كفلائهم.

يمر الليل ببطء شديد، ولكن ظهر نور الصباح من النافذة الصغيرة آخر الغرفة، لم تغمض عيني قط حتى جاء العسكري في التاسعة صباحًا ينادي على اسمي: أكرم حسني، جاوبته في لهفه، أخذني لمكتب الضابط وعلمت أن الشركة قد أرسلت لي أحد الإخوة السعوديين الذين يعملون معنا بمهنة معقب، كان اسم مهنة معقب جديدا عليّ، وجدت شخصا ذا بشرة سوداء يرتدي ثوبا أبيض وغطرة حمراء منقوشة بالأبيض يسلم عليّ ويقول: أرسلني أبو طلال لك لكي أعرف ماذا حدث وما الأمر.

أخبره الضابط أنه لا بد أن يأتي أبو طلال بنفسه ولا يسمح للخروج له قبل أن يأتي، اتصل المعقب بأبي طلال ولكن أبو طلال غضب غضبًا شديدًا ولم يأتِ لقسم الشرطة، ثم تحدث معي المعقب وقال إنه سوف يأتي بأبي طلال ويعود مرة أخرى لا تقلق.

كان تعامل المعقب معي طيبا ولم يكن من المتكبرين أو المتغطرسين مثل البعض، ذهب وتركني وأمر الضابط بعودتي للحبس، ازداد حزني حزنًا.

عدت مرة أخرى أشعر بتعب شديد، جلست بنفس المكان الذي كنت به طوال الليل ولكن لم أشعر بنفسي إلا وهم ينادون عليّ مرة أخرى قبل المغرب، علمت أن أبا طلال قد تكرم وجاء لقسم الشرطة ليخلصني مما أنا فيه، ولكنه ينظر إليّ وكأنه يتوعدني.

خرجت بحمد الله وذهبت مع المعقب وأبي طلال في السيارة للمنزل ولم يتحدثان معي في أي شيء، ذهبت إلى المنزل اغتسلت وذهبت للنوم لم أستيقظ حتى الصباح، ذهبت للعمل في الصباح وقابلني الناس على أنني مشترك في هذه الجريمة، تعجبت لهذه العقول غريبة الفكر، ساعات قليلة ثم وجدت أبا طلال يناديني إلى مكتبه.

الفصل الرابع

(الانتقال إلى الدمام)

ذهبت إلى مكتب أبي طلال وجدته متغير الوجه قليل الكلام، جلست في انتظار انتهائه من مكاملة تليفونية، لم يعقب كثيرًا على ما حدث وإنما قال لي:

- أستاذ أكرم أريدك أن تنتقل لفرع الشركة بالدمام.

- لماذا أنا هنا لم أجلس طويلًا؟

- سترتاح أكثر في الدمام، وفرع الشركة قليل لا يوجد به موظفون كُثر ويعمل معك بعض العمال.

- كيف تكون طبيعة عملي في الدمام؟

- أخبرني بأن لديه بعض العقارات والممتلكات والأراضي في المنطقة الشرقية هذه العقارات ليست بالقليلة وهناك بعض الأعمال في المقاولات يديرها بعض الشباب المصريين هناك، ولكن أريدك أنت في مهمة معينة وهي أن تجمع هذه الإيجارات شهريًّا وأن تكون المسؤول عن صيانة هذه العقارات من شقق وفيلات وغيرها من الممتلكات.

فكرت في الأمر، علمت أن يبعد كل البعد عن المحاسبة ولكني ماذا أفعل؟ لم يكن لدي الكثير في التفكير أو الاعتراض أنا الآن هنا ولست في مصر كي أرفض، قبلت العرض على أمل أن أتخلص من معتز ومن على شاكلته في الشركة في الرياض وأن أهرب من جحيم السكن الممتلئ بالحقد والكره.

عندما جاء المساء أخبرت عم سيد بما حدث، فرحب بذلك وقال أنني سأرتاح أكثر من الرياض، لم ألبث كثيرًا حتى انتقلت للدمام بكل متعلقاتي، وجدت في سكن الشركة الخاص بموظفين الدمام اثنين من المصريين وشابا سوريا وشابا فلسطينيا وهناك شقة أخرى تجمع عمال الصيانة من الهنود والباكستان والبنجلاديش تقريبًا سبعة عمال من الجنسيات المختلفة هذه.

جلست مع الشابين المصريين في غرفتهما، كانت غرفة كبيرة إلى حد ما شعرت بأنهما متأففان من ضيق المكان عليهما ولكنهما رحبا، وماذا عليهما إذن سيظهر ذلك من خلال معاملتهما لي في الأيام القادمة.

الأيام الأولى في الدمام كانت تبشر بالخير حيث أنني ارتحت لهذه المدينة الجميلة وتعلمت في الأيام الأولي كيف أدير هذه العقارات وبدأت في التعارف على المستأجرين وكان معي وبصحبتي دائما العمال الهنود، كان يأتي لي الاتصال من المستأجر بأن هناك عطلا في الشقة، أذهب أنا والعمال لكي نرى العطل وأقوم أنا بشراء القطع التالفة ثم يقوم العمال بتركيبها وهكذا.

شعرت براحة في العمل نفسه وجدته يتناسب مع طبيعة شخصيتي حيث أنني أنا رقيب نفسي وأنا مدير نفسي لدي مصروف خاص بصيانة الشقق يخصم من إجمالي الإيجارات الشهرية وأدرج الفواتير وترسل بالكامل لأبي طلال في الرياض.

كان أبو طلال يتصل بي دائما يطمئن على سير العمل وكيف وضعي معه، أخبره أن الأمور أفضل وأنا أسير في الطريق الصحيح نحو الاستقرار

في العمل، كان يظهر عليه السعادة ويستبشر خيرًا ثم يغلق الهاتف وأنا أزداد ثقة في نفسي.

بدأت في التعارف على مصريين من المستأجرين في الشقق متوسطة الحجم والسعر، كان أحدهم يدعى "سعيد مهران"، تعرفت عليه أول مرة عرفني بنفسه وأنه من مدينة بنها، وأنه هنا منذ خمسة وثلاثين عامًا، فُجعت بالرقم عندما قاله وتبسم وقال لي:

- ستجلس أنت أربعين.

- لا أريد أن أجلس أكثر من عامين

ضحك لي وقال: كان غيرك أشطر.

كانت كلماته بها ثقة كبيرة بأن من يقطن الغربة لن يعود إلا بعد فوات الأوان وبعد ذهاب العمر دون جدوى، سألته:

- هل يحق لك أن تأخذ الجنسية السعودية؟

ضحك بصوت عالٍ وقال:

- هنا لا تستطيع أن تأخذ الجنسية حتى ولو جلست مائة عام، لو كنت في أوروبا كان ممكنا من خمس سنوات فقط.

تعجبت ولكني لم أفهم لماذا ولم أكثر معه الكلام في ذلك، وفي يوم جاء الحاج سعيد مهران الذي يظهر عليه أثر الكبسة من كرش متدلل أسفله يمشي ببطء يحرك ذراعيه باتجاهين قد يقترب من بعضهم عند الحركة

للأمام، يجلس على كرسي بصعوبة، لحمه مكتظ للغاية، خمسة وثلاثون عامًا من الكبسة تكفي ليحدث ما أراه، من أخطر الأشياء التي تنتجها لنا الوظائف المكتبية قلة الحركة وزيادة الوزن حتى ولو كنت ممن لا يفرطون في الطعام.

عم سعيد كان يحب النقاش الكثير وكأنه محروم من الكلام أخبرني بأن معه أولاده وزوجته هنا، جميع أولاده تعلموا هنا وزوجته لا تفارق التلفاز والأسواق، ثم قال:

- "يا أكرم لو تزوجت بلاش تجيب زوجتك هنا، النساء هنا تحب الأسواق مثل عيونها، لو نزلت لتشتري شيئا ثمنه خمسون ريالا تعود وقد كلفتك خمسمائة ريال، ولا تبالي هذه النساء بكل ذلك، ولا تبالي بماذا تفعل لكي تحصل على المال".

- يا حاج سعيد ليست كل النساء هكذا والرجل بالتأكيد هو من يتحكم.

ضحك ضحكة هستيرية وقال:

- إنت ما زلت على البر يا أستاذ أكرم، لم تعلم بعد بأفعال النساء هذه، ستعلم ما أقول فيما بعد.

أخبرني بأن كل ما يعمل به يضيع هنا ولا أستطيع توفير شيء من مدارس وملابس وطعام فضلا عن الإيجار الذي أتيت لأدفعه لك كل ثلاثة أشهر وضحك مرة أخرى.

تبسمت له وقلت له: "هي جت على الإيجار يا حاج سعيد".

قال لي: لا أبدًا، أضحك معك، بالعكس الإيجار هو أهم شيء لدي، ولكن أخبرك بحسرتي نحو ضياع العمر في الغربة دون فائدة، لأن الناس في مصر تنظر لي وكأنني مليونير وهم لا يعلمون شيئا عن معاناتي وكيف تدار الغربة بأموال المرتب المنهوب الذي لم يكمل الشهر بعد، وعند نزول الإجازة لا بد أن أحمل للجميع هدايا كما عودتهم منذ ثلاثين عامًا، ولا أحد يعلم ما أصابني من أمراض هنا في الغربة حيث إنني أعاني من السكر والضغط نتيجة لعصبية العمل المستمرة ونتيجة لعدم الحركة لأن حياتي كلها عبارة عن سيارة ومكتب فأثر ذلك على صحتي جدًّا، خاصة بعد أول عشرة أعوام في الغربة، ولذلك أنصحك يا أكرم أن تهتم بالرياضة وتشترك في صالة رياضية مناسبة لك وألا تترك نفسك للكرش والدهون المتراكمة من أكلات الوجبات السريعة والكبسة المشؤومة.

تنهد وقال: هل تعرف أن أكثر ما أعانيه هنا يا أستاذ أكرم أن بناتي هنا لا أحد يراهن، والآن منهن من انتهت من الجامعة ولم يتقدم لخطبتها أحد نهائيا، وأنا لدي أربع بنات وولدان، أكثر ما أخاف على البنات، فقد كنت سببا من تضحياتهن بعدم نزولهن بمفردهن مصر. عندما انتهت البنت الأولى من الثانوية العامة هنا كان مجموعها تقبل به كلية الطب هنا ولكن رفضوا لأنها مصرية فهنا يمنعون كليات الطب والهندسة وغيرها من الكليات التي تنفق فيها الدولة مبالغ كبيرة على الطلاب فيرفضون الطلاب الأجانب أو كما يسموننا أجانب هنا، لذلك قبلت بالدخول بكلية إدارة

الأعمال هنا وضحت بحبها لكلية الطب حتى لا تتركنا وتنزل مصر بمفردها وأنا أيضا لا أستطيع أن أطمئن وهي بمصر وحدها، ولذلك أخشى الآن أن يمر العمر من بين أيدينا وتتأخر البنت تلو الأخرى في الزواج لأنهن هنا لا أحد يراهن وعندما ننزل مصر إجازة تكون المدة قصيرة فلا أحد يستطيع التعرف عليهن ولا رؤيتهن.. الله المستعان.

كان شريط حياة الحاج سعيد يمر أمامي وكأنه يحكي فيلما يتكرر مع الكثير ممن سافروا إلى الخليج وحدثت معهم المشاكل نفسها التي يحدثني عنها، وشعرت بالخوف مما قاله وحدثت نفسي ألا تتراخى حتى لا يحدث ما حدث وانظر إلى آثار السابقين حتى لا يصيبك ما أصابهم.

كل يوم تزداد معرفتي بالناس خاصة المصريين الذين يسكنون العقارات الخاصة بأبي طلال، وعندما أتعرف على شخص أو ساكن تقوم بيننا علاقة صداقة لا أعرف ربما يرتاح لي فيقوم بسرد ما يعانيه بداخله، لأن أغلب المغتربين وإن كنت تراهم من الخارج بشكل يبدو سعيدًا إلا أنهم في الغالب يعانون، وجدت أغلبهم يعانون بكثرة ولا أحد مرتاح بينهم، كنت كل يوم أسمع مشكلة من مشاكل المصريين، كنت سعيدًا بما أسمع لمجرد أن يثق الشخص في ويعرض عليّ ما يعانيه، كنت مستمعا جيدا لما يقولونه وناصحا أمينا فزادت الثقة بيني وبين المستأجرين خاصة المصريين منهم ولكنني كنت أيضا حزينا لأحوالهم التي لا تظهر أبدًا من الخارج إلا مع القليل منهم من يظهر على ملامحه علامات الحزن والضيق.

كنت أسمع بعض المواقف وأتعجب ولا أعلم أن هذه الدنيا مليئة بكل هذه الهموم والمتاعب، من ضمن ما أحزنني حقًّا تلك السيدة المصرية التي تقطن الدمام، ذات يوم جاءني اتصال منها أن لديها بعض أعمال الصيانة في المسكن، ذهبت ومعي بعض العمال المتخصصين فوجدت امرأة مصرية جميلة في مطلع الثلاثين من عمرها تتزوج من رجل سعودي يكبرها بنفس عمرها أي أنه من رواد الستين، تعاني من مشاكل عديدة حدثتني عندما كنا في انتظار العمال حتى ينتهوا من الإصلاحات، قالت بصوت حزين أن والدها زوّجها هنا من أجل المال وأنهم فقراء جدا وفرحوا بمبلغ الخمسين ألف ريال وتزوجت دون موافقتها، تقول:

- كنت أبكي بحرقة ولا أريد السفر معه ولكنهم أجبروني وكتب والدي عقد الزواج دون حتى أن يستشيرني المأذون في ذلك، باعوني بمبلغ زهيد، كنت لم أكمل عامي التاسع عشر وجئت إلى هنا في معاناة شديدة استمرت لسنين وليست شهور وجدتني الزوجة الرابعة بعد أن طلق زوجة أخرى كانت على ذمته أيضا فهو يقوم بالزواج من المرأة لمدة معينة ثم عندما يحلو له التغيير يقوم بطلاقها دون أدنى شعور بألم فراق أو حتى ظلم تلك المرأة، ثم يقوم بالزواج من أخرى، ويا ليته يعطي كل زوجة حقها الشرعي إنما يتركهم ويرحل للبر.

- وما البر هذا؟

- البر هنا هو باختصار الصحراء يرحلون لها، يقومون بنصب خيمة ويأخذون معهم أغراضهم من شاي وقهوة وتمر وطعام ويجلسون فيها مدة

معينة يوم أو يومين أو أكثر من ذلك حتى ينتهوا منه ثم يعودون مرة أخرى، يزورني كل فترة ويعتمد أن لدي خادمة فلبينية وسائقا هنديا، ربما أكون أنا محظوظة بعض الشيء لأن عمره اقترب على النهاية ولا يستطيع الزواج من أخريات وإن كان يشعر من حوله بأنه (عنتر زمانه) ولكنه في الحقيقة لم يصل إلى عبلة.

كانت تتكلم بحرقة وذرفت دموعها وهي تتكلم، سألتها:

- هل لديكِ أولاد منه؟

- نعم لدي بنت واحدة اسمها مريم، لا ترى والدها إلا كل فترة كبيرة.

- وماذا عن أهلك؟

حزنت أكثر عندما سألتها، قالت:

- أهلي هؤلاء ليسوا أهلا أصلا، سامحهم الله على ما فعلوه معي ومع أخواتي.

زادني كلامها حزنًا على ما يحدث لنا نحن المصريين بالداخل والخارج، انتهيت من عملي لديها وأخبرتها بأني مثل أخيها أي وقت أنا في خدمتها فلا تتردد بالاتصال بي، شكرتني وتأسفت إن كانت أزعجتني بكلامها وشكواها.

تركت منزلها شارد الذهن ربما الأيام تخبئ أكثر من ذلك وهناك من يعاني أكثر ولا أحد يعلم بهم، الغربة ما هي إلا منفى بعيدٌ عن الأهل والوطن والناس الذين اعتدت على رؤيتهم ومن ارتبطت بهم عاطفيًّا وقربًا، من الممكن أن ننشئ لنا أهلا وأحبابا في الغربة ولكنهم أبدًا لن يعوضونا عن

حنين الماضي ومنبتنا الأصلي، مهما توارت الأيام وغيرتنا لا يمكن أبدًا أن تعوضنا عن جذورنا الأصلية.

عدت إلى المنزل الذي يجمعني بالمصريين والفلسطيني والسوري جميعًا لنا عادات وتقاليد تختلف من مكان إلى آخر وكل إنسان له طقوس تختلف عن الآخر، عندما عاشرت النفس البشرية في الغربة وجدت الكثير من الناس مرضى نفسيين، كل نفس قابلتها وجدت بها من المشاكل ما لا يعلمه إلا الله، فذلك الفلسطيني الذي فاجأني بعد عدة جلسات معه بأنه يكره جميع العرب وخاصة المصريين وعندما سألته لماذا أبلغني بأنهم تركوا أرض فلسطين منهوبة للصهاينة ولم يحرك أحد منهم ساكنا طوال هذه السنين ونحن ننزف دمًا ولا أحد منهم يحاول المساعدة وكل مرة يجتمعون في قمم عربية لا جدوى منها وناهيك على أنهم يعلمون أجيالهم بأننا نحن الفلسطينيون من سلمنا أرضنا وغيرها من الأشياء الخبيثة التي نجدها مخزونة في قلوب الأجيال الصاعدة.

وهذا السوري الذي لا يحب التعامل إلا مع أبناء بلدته هنا ولا يميل إلينا نحن المصريين، تحدثت معه ذات مرة حكى لي عن ذلك الشخص المصري الذي تسبب في ترك عمله القديم الذي كان يشعر فيه بالراحة والسعادة بعد أن قام المصري بالوقيعة بينه وبين كفيله وتم على أثرها تركه العمل لولا أن وجد عملًا مع أبي طلال.

أخبرته بأن هذا ليس كفيلًا بأن تكره كل المصريين فبالطبع ليس كلهم هكذا ربما هناك شخص مريض نفسي تسبب في جعل مسلم أو غيره يترك

عملًا ويكون سببا في قطع رزقه ولكن ليس شأن كل المصريين هكذا فمنهم الصالح والطالح مثل أي شعب في هذا العالم، قال:

أعرف أخ أكرم ما تقول ولكني نفسيًّا لا أريد التعامل مع المصريين اعذرني ولا أريدك أن تغضب من كلامي ولكن لا أريد أن أنافقك وهذا ما أشعر به على الدوام ليس بيني وبينك أي شيء وأشعر أنك شخص تخاف الله وتتعامل معي جيدًا ولكن أريدك أن تعذرني لأنني لا أريد التعامل مع أي مصري إلا للضرورة القصوى، أما عن المصريين الذين يجلسون معي في الغرفة فقد اكتشفت أشياء عجيبة عنهم جعلوني لا أريد أن أعود المنزل إلا على النوم فوجدت أحدهم يحب أن يسمع كل ما يدار حوله ظننت في البداية أنه فضولي ولكني بعد فترة من الزمن اكتشفت أنه يقدم تقريرًا أسبوعيًّا لأبي طلال عبر البريد الإلكتروني بخلاف ما ينقله بالتليفون وعلمت ذلك عن طريق خطأ منه ساذج عندما وَقَعت منه ورقة بخط يده مكتوب بها بعض تفاصيل اليوم عن جميع الأشخاص الذين يسكنون معنا ويعملون في مقر الفرع بالدمام، فاستغربت ماذا يستفيد من ذلك وهل الموضوع يحتاج إلى ورقة يكتب بها تفاصيل ربما هذه تدابير الله حتى يقع في أخطائه ونعرفه، فزاد حرصي منه وقررت أن أتحدث أمامه بمعلومات خطأ حتى ينقلها لأبي طلال ويكون عقابه النقل الخطأ لما يفعله من وقائع بين الناس.

أما الشخص الآخر فكان طيبًا إلى حد كبير ولكنه لديه بعض المشاكل النفسية فضلًا عن حرصه على المال، ولكنه كان كثير الشكوى والضجر مما

يحدث له، كل يوم يتحدث عن أنه ليس في الكون إلا هو من يعاني من مشاكل الغربة والكفيل والناس والعمل وغير ذلك، كان هشًا بعض الشيء، أخطاؤه لم تكن على طفل في الابتدائية، كان يحدثني كثيرًا عن مشكلته في الخطوبة والزواج بشكل عام، كلما يخطب فتاة من مصر لا تتم الخطبة لذلك تعددت خطباته لأكثر من فتاة، وكان هو من يتركها مرة وهي من تتركه مرات وكان ينزل كل إجازة لا يستطيع أن يخطب لضيق الوقت، كانت الإجازة حوالي خمسة وأربعين يومًا فكان مثل الذي يبحث عن قطعة أرض أو شقة تمليك يزور سريعًا كل تجار العقارات مع السماسرة ويقوم بالاتفاق سريعًا بعد أن يحصل على صورة لمحبوبته الجميلة ثم يترك مصر وهو خاطب خطوبة جديدة لا يتذكر منها إلا بعض ملامحها من مرة أو مرتين اجتمع بخطيبته فيها ثم راح وتركها وجلس على الإنترنت يعشق سرابًا لم يكتمل في ذهنه صورتها الكاملة، ثم حدثت المشاكل بينهما وتركها.

علمت حقًّا أن المغترب يعاني كثيرًا في موضوع الخطبة والزواج وأعتقد أنني سأواجه هذه المشكلة، فمن خلال ما رأيت إن لم يكن الشاب قد خطب قبل أن يسافر في الغالب سيتعب تعبًا شديدًا في اختيار من يحب ويرتبط بها طوال العمر لأن اختيار الزوجة يترتب عليه سعادة أو تعاسة أو استقرار أو عدم استقرار فتجد أن الشاب المغترب يبحث عن وجبة سريعة تقضي جوعه وينتهي ثم يعود ليرى ما كان لا يراه في الماضي عندما يصطدم بالواقع.

الفصل الخامس

(فريضة الحج)

مرت الأيام مسرعة كسرعة البرق، ويأتي رمضان، ويا لها من أيام ليس لها طعم ولا حلاوة أيام رمضان التي كنت أشاهدها وأعيشها في مصر، تلك الأيام الخوالي التي مرت أمام أعيني ولم أكن أتوقع أن يأتي اليوم الذي يكون فيه إفطاري في رمضان وحدي، كان إفطارا قاسيا جدًّا إلا أنني استطعت مع مرور الوقت أن أتغلب عليه باشتراكي مع بعض المصريين والعرب في الإفطار ولا يهم أين المكان الذي نفطر فيه فقد كنا نتبادل الأيام بين الشقق وكل شخص يدعو الآخر إلى بيته وهكذا مر رمضان بيننا، ومن جميل ما رأيت هنا الجمعيات الخيرية التي تتبناها الدولة في إنشاء إفطار جماعي للناس، أغلبه يجمع المغتربين خاصة من جنسيات البنجلاديش والفلبيين والهنود والسريلانكيين ونيبال والقليل من العرب، جمعيات تقوم بهذا الدور على كفاءة عالية جدًّا من الإتقان ونشر الخير وحسن استقبال الضيف وغيرها من الأشياء التي أتمنى أن أجدها في كل بلاد العرب.

وينقضي رمضان سريعًا ويأتي عيد الفطر الذي يشبه كل أيام السنة هنا ولا يوجد به أي بهجة بخلاف الصلاة وحدها، صلاة العيد هي التي تختلف هنا، هي التي أشعر من خلالها بأن هناك عيدا والناس يُكبرون، وأخرج من الصلاة لا أجد أحدا أعرفه أسلم عليه إلا القليل جدًّا من الأصدقاء المقيمين حولنا ثم نذهب إلى النوم وهكذا تنقضي أعياد الغربة.

وسرعان ما انقضى السبعون يومًا ما بين الفطر والأضحى ويمر الوقت سريعًا ويأتي موسم الحج الذي لا أجد ما يستحق الغبطة للمغترب في بلاد الحرمين على أنه قريب من الحرمين ويستطيع العمرة والحج والزيارة، كنت

دائما أردد في ذهني ذلك الحديث عندما كنت في مصر، كنت أقول: ما أجمل أن يكون المسلم بجوار الحرم عندما يريد أن يذهب لأداء الحج أو العمرة يكون عليه سهلًا، وعندما اقترب موعد الحج هنا سمعت من بعض الشباب في السكن أنهم يريدون الذهاب هذا العام للحج، فكرت في الأمر وبدأ الشوق يزداد بداخلي كم أنا مشتاق لأداء الفريضة وزيارة الحبيب ﷺ، علمت منهم أن الموضوع ليس بالأمر الهين كما تعتقد وإنما يوجد هنا مشكلتان لأداء الفريضة:

أولًا: لا بد من توافر ما يسمى بالتصريح أي تصريح الحج.

ثانيا: هي تَحملك المصاريف ومشقة السفر في حدود ألف وخمسمائة كيلو متر من الدمام إلى مكة.

لم أرَ الموضوع بالنسبة لي مشكلة فمن الممكن أن أتحمل مشقة السفر في سبيل الحج ومن الممكن أن أذهب دون تصريح ويبقى توفيق الله لي أن أدخل دون مشاكل مع الأمن هناك على مداخل مكة، حتى لا يحدث في حجنا رفث ولا فسوق ولا جدال.

عزمت الأمر وتوكلت على الله وبت أنتظر ما نويت عليه ثم تفاجأت بأني لا بد لي من خطاب يوقع عليه الكفيل، لماذا؟ لا أدري!، ولا بد أن يوافق على هذه الإجازة والسفر للحج، أي ما يقرب من العشرة أيام، تشعر بأن الكفالة أشبه بالعبودية لا تستطيع أن تفعل شيئا إلا بإذن الكفيل حتى السفر للعمرة أو الحج، من حسن حظي أن وافق أبو طلال على السفر للحج بشرط خصم الأيام من المرتب.

ذهبت مع بعض المصريين في سيارة خاصة بأحدهم وكانت تكلفة الطريق بما فيها مصاريف السيارة تقسم علينا وفي ظل طول الطريق الذي كنا نعاني منه تبادلنا الحديث طوال الطريق الذي حطم ظهورنا، فوجدت أحد الشباب الذين يسافرون معنا في السيارة شاحب الوجه يبدو عليه أثر الحزن لم يكن مثل الباقين، سألته: ما بك؟ لم يجاوبني وقال: لا شيء.

ثم عندما نزلنا استراحة في الطريق لأداء الصلوات وتناول الطعام وتعبئة بنزين للسيارة، كنا بمفردنا فأخرج ما في جعبته من آلام لا يتحملها بشر إذ إن هذه هي الذكرى السنوية الأولى لزوجته التي وافتها المنية هنا في السعودية العام الماضي وكان قبل الحج بأسبوع واحد إثر حادث مفاجئ تاركةً له ثلاثة من الأبناء ولم يوافق كفيله بنزوله بها مصر حتى يدفنها وأصر الكفيل على عدم نزوله بزوجته مصر مدعيًا أنه في موسم الحج وعملهم هو في مؤسسة لخدمات الحجاج والمعتمرين، وبالرغم من وجود شخص آخر هندي معهم في العمل إلا أنه أصر على عدم نزوله مصر، ومع تأخر الوقت اضطر لدفنها في المقابر هنا، وأضاف:

ومنذ ذلك الوقت وأنا في مشاكل مع كفيلي وبيننا مكتب العمل الذي لم ينصف مظلومًا قط على حساب سعودي وإنما دائما ينصرون أبناء بلدتهم على المستضعفين أمثالي، ولا جدوى ولا أحد يعلم بحالي إلا الله، ومنذ شهر فقط أخذت قرارا من مكتب العمل بخروجي النهائي وسفري إلى مصر خلال شهرين مر منهم شهر وقررت أن أجازف وأسافر إلى الحج لأداء

هذه الفريضة لزوجتي قبل أن أعود إلى مصر، وتركت أولادي مع زوجة صديق لي هنا في الدمام، والحمد لله أقلهم عمرًا عنده ثلاث سنوات.

زادني حزنًا ما سمعت، ولكني أتوقع كل شيء الآن في هذا العالم المادي المليء بالقسوة والصراعات وحب النفس الذي سيطر على الأخضر واليابس وحرمنا البركة والحب بيننا.

أكملنا الطريق حتى وصلنا الطائف كي نُحرم من ميقات السيل الكبير الذي يكون في طريقنا نحو مكة، وانتهينا بحمد الله من الإحرام وتوجهنا نحو البيت الحرام لأداء طواف القدوم وكان الزحام يشتد ويشتد حتى يوم عرفة، ذلك اليوم المهيب الذي لم أرَ مثله قط، نظرت إلى الموقف والناس حول الجبل (جبل الرحمة) الذي يقال إن سيدنا آدم عليه السلام التقى بأمنا حواء عليه وعرفها عليه، الجميع يرتدي رداءً وإزارًا أبيض، الغني والفقير، الرئيس والخفير، الجميع يتساوون هنا لا فرق بين عربي ولا أعجمي الكل جاء محملًا بالذنوب يريد الغفران والعودة بلا أدران، المنظر مهيب، الكل يناجي الله، والكل في حالة فرحة ورجاء، وتساءلت إذا كان كل هؤلاء الملايين هنا فمن أين يأتي الشر؟! لماذا الناس تعود من الحج والعمرة وتنسى هذا اليوم إلا من رحم الله؟! لماذا يعودون لسابق عهدهم ويرجعون لأفعال الحقد والكذب والخداع؟ لماذا لم يتخلصوا من كل أدران الحياة ويمشوا مستقيمين حتى ولو بعد أداء الفريضة؟! لماذا يعودون لقطع لصلة الأرحام ونبذ الخلافات كما لو لم يكن شيء؟! الكل هنا يناجي، الكثير يبكي فرحًا وندما، البعض يقدم مساعدات من أطعمة ومشروبات، بعض آخر

يقوم بتوزيع المياه وهناك الطائرات تقوم برش زخات المياه من أعلى، الفرحة عارمة، الجنسيات كثيرة من كل فج عميق من كل مكان في الدنيا يجتمعون هنا في هذه البقعة الطاهرة، رأيت عجب العجاب في هذا الحج، رأيت جنسيات مختلفة بشتى اللغات، حدثني أحدهم بالإشارة وبينت له ما يريد بالإشارة أيضا وجاءت ساعة المغرب والنزول من عرفات، واحتشاد الناس في الطريق زاد الموقف هيبة وجمالًا، الرداء والإزار الأبيضان يزدادان نورًا مع غروب الشمس ومجيء الظلام، الكل يلبي والكل يُسبح والصوت يعلو والقلوب ترقص فرحًا، يهنئون بعضهم البعض، غفر الله لنا ولكم ورزق الجميع الوقوف بعرفة أعوامًا عديدة.

جاء يوم طواف الإفاضة ذلك الطواف الذي يتوسط طواف القدوم وطواف الوداع، ذهبت إلى البيت الحرام لأداء الطواف وفي مشهد عجيب رأيت امرأة تبكي بحرقة والناس يجتمعون حولها لأنها فقدت ابنها الصغير ذا الأربعة أعوام والناس تبحث معها ولكن الزحام شديد، وترى الناس لا تستطيع التحرك بسهولة فما بالك بالطفل الصغير؟! كان معها زوجها الذي تركها كالمجنون يبحث في كل مكان وينادي على ابنه ربما يسمعه الطفل الصغير فيرد على أبيه ذي القلب المفطور، ولكن لا جدوى، يبحث الأب الشارد التارك زوجته تبكي بحرقة عند مدخل الصفا والمروة وهو شارد يجري بحثًا في كل مكان عن الطفل المسكين الذي غاب عن الأنظار، الناس بدأت تتفرق من حولها وهي واقفة حزينة لا تفعل شيئا ولكن الله ألهمها أن تتجه صوب الكعبة وتقف بقلب حاضر وترفع يديها إلى السماء والدموع تذرف منها وتقول: "يا ألله جئت إليك لتغفر ذنبي، يا ألله لا تبتلني

في ولدي، يا ألله أنا الضائعة وسط عبادك هؤلاء، يا ألله رد عليّ ابني ولا تحرمني منه يا قريب".

في مشهد لا يتكرر كثيرًا ولم أره أبدًا في حياتي عاد الطفل من جانب أمه المكلومة يمسك في ثوبها من الأسفل وهي ما زالت رافعة يديها إلى السماء تناجي الله، لم تتمالك نفسها ولا تشعر إلا بحضن ابنها الذي أطبقت عليه وكأنها تريد أن يلتصق بها، جلست على الأرض بعيدًا عن طواف الناس والزحمة الشديدة ولم تصدق ما حدث لها وسط هذا الزحام الشديد، مرت دقائق وساعات حتى عاد الأب ووجدها تمسك بابنها، أخذ ابنه منها يحتضنه ويبكي هو الآخر ولم يصدق أنه عثر على فلذة كبده في وسط هذا الزحام، حمدا الله كثيرًا وسجدا لله شكرًا على أن رد عليهما قلبهما.

تأثرت كثيرًا مما حدث أمامي وظللت أرقبهما حتى قاما من مقامهما وخرجا من المسجد، ما زلت أجهل الكثير في هذا العالم المليء بالخبايا وجددت يقيني بأن الله هو الأقرب إلينا من حبل الوريد.

بحمد الله تعالى أدينا مناسك الحج حتى آخر يوم منها ثم عدت أنا وأصدقائي بنفس السيارة التي تركناها في مواقف السيارات المستأجرة بالأيام، كانت رحلة بها مشقة ولكنها الأجمل في حياتي، يتبقى لنا مشقة الطريق الذي ما زال في البداية، كانت السعادة عارمة على وجوهنا في العودة بعكس ما كان بعضنا شاحب الوجه في الذهاب.

كان الطريق طويلًا جدًّا مع تعب الحج، كان أغلبنا يخضع للنوم ثم نقوم بتبادل القيادة بيننا، ونتوقف كل فترة في استراحة معينة حتى وقفنا في بلدة صغيرة جدًّا يطلقون عليها محافظة وعلمت بعد ذلك أن كل بلدة كبيرة أو صغيرة هنا تسمى محافظة وقلما تجد ما يطلقون عليه قرية، توقفنا في هذه البلدة المحاطة من كل الاتجاهات بجبل جرانيتي من الصخور الصلبة ذات اللون الأسود ولا يوجد بها أثر الخضرة ولا الماء وقفنا في محطة وقود ليست بالكبيرة مثل باقي المحافظات، وهناك بعض المحلات الصغيرة مثل بوفيه للأكلات السريعة والمشروبات ومحل للمواد الغذائية ولكنه محل صغير عندما تجولت فيه وجدت شابا مصريا يعمل به بمفرده سألته:

-كيف حالك يا أخي؟ حضرتك مصري أكيد؟

-قال: نعم من محافظة قنا.

-تبسمت له وقلت له: معك أكرم حسني مصري من القاهرة.

-قال: مرحبا بك أخي أكرم أنا حمزة من قنا.

كان يبدو على وجهه أثر الطيبة والصلاح وتعلو جبهته أثر الصلاة والسمت الحسن يظهر من ملامحه، سألته:

-كيف تعيش في هذه البلدة المعدمة المحاطة بجبل من جميع الاتجاهات ولا يوجد بها أي خدمات حتى المستشفى أو بنك أو غير ذلك من الخدمات الضرورية للحياة؟

-قال: ماذا أفعل إن لم أرضَ على حالي؟! هذا قدر الله لي وأنا سعيد جدا بذلك واعتدت على هذه البلدة، بل أحببتها كثيرًا كان هذا الجو العام للبلدة الخالية من متاع الحياة الدنيا طريقًا للوصول لحفظ كتاب الله، والانتظام في العبادة التي ليس لي سواها هي وعملي هنا، وكل شيء مدبر بإذن الله، فمثلا المستشفى يبعد عن هنا حوالي ستين كيلو متر وبنوك التحويل لو أحببت أن أحول بعض مصاريف لأولادي فهناك على بعد مائة كيلو متر فكل ذلك مدبر إذا توفرت سيارة من بعض الإخوة والأصدقاء، ولا أخفي عليك كان أول أيامي بها معاناة حتى اعتدت على المكان وارتحت له، والحمد لله على كل حال.

نظرت إليه في تعجب رهيب، إنه يملك الرضا وما أدراك ما الرضا ذلك الكنز الذي لو ملكته لملكت الدنيا وما فيها، إننا يغرينا الشكل يا سادة، ننظر إلى الناس من مظاهرهم ولو اطلعت على القلوب لحزنت حزن السنين، مقدار الإيمان في قلوب العباد ليس بالشكل فقط إنما الأفعال وردود الأفعال هي من تحدد الكثير من التدين أو غيره، إن الرضا عن تدبير الله لك من أكبر الأشياء التي تحدد مقدار إيمانك، لأن الله يعلم ما يصلح أحوالنا وما يختاره الله لنا هو ما يناسبنا وإن كنا لا نفقه ذلك في البدايات ولكن مع مرور الوقت يتضح لنا أن ما دبره الله لنا كان الخير كله ولكننا قومٌ مستعجلون.

الفصل السادس

(شهادة حق ومجلس المصريين)

وصلنا بحمد الله إلى الدمام بعد مشوار طويل ظللت بعده طريح الفراش يومين، أشعر بتكسير عظمي وكأنه مقسم لقطع صغيرة وأنا كما يقولون في مقتبل العمر فكيف بحاج بلغ الستين يطوف ويسعى ويعود إلى بلاده، أسأل الله أن يكتبها لكل مسلم، ثم بعد ذلك رجعت العمل بعد خصم اثني عشر يومًا من الشهر وبدأت في استرجاع ما فقدت من معلومات كنت قد أمرت عقلي بالتخلص من كل ما يتعلق بالعمل وكأنني أريد التخلص من العمل نفسه، شيء عجيب لدي أنني عندما أتفرغ بعض أيام أمل مللا كبيرا لكي أعمل وعندما يزداد العمل أو ضغوطه أشعر بعدم الرغبة في العمل كله.

مر أسبوع كامل على عودتي من أداء فريضة الحج وكنت قد ذهبت إلى ممشى كبير مخصص لرياضة المشي لا يوجد به كثير من الناس لرطوبة الجو، كنت أذهب إليه مرة كل أسبوع أو مرتين في الأسبوع وفي يوم من الأيام ذهبت إليه في الحادية عشرة مساءً وكان الممشى هذا عبارة عن طريق مسطح من البلاط البارز، وعلى يمينه حديقة بها زراعات من النخيل والنجيل الصناعي وبعض أشجار الورد والزينة، وعلى يساره طريق أسفلتي للسيارات ولكن ليس به كميات كبيرة من السيارات إذ إنه كلما مرّ ما يقارب من النصف ساعة ترى سيارة تمر من ذلك الطريق وفي أثناء مرور أحد الأشخاص به وفي سرعة رهيبة جاءت سيارة كبيرة لونها أسود من السيارات الضخمة ماركت GMC وصدمت أحد الأشخاص ثم تفر هربًا بسرعة جنونية وتترك الشخص مرميّا على الأرض دون أي إسعافات، أسرعت نحو المصاب بكل سرعتي وتمكنت من أخذ رقم السيارة بالكامل إلا

إذا لم يخنّي العقل في حفظ بعض الحروف العربية التي تكون بجوار أرقام السيارة فحفظتها وفي لمح البصر جاء بعض الشباب الذين كانوا يمارسون رياضة المشي معي تجمعوا جميعًا حول المصاب الملقى على الأرض وكان شابا مصريا يبدو أنه في العقد الثالث من عمره جسده نحيل تظهر عليها ملامح صعيد مصر، وجدته ينزف دمًا من أعلى رأسه ويبدو أن الإصابة كبيرة للغاية، أحد الشباب الذين التفوا معي حوله اتصل بالإسعاف وفي لحظات جاءت سيارة شرطة صغيرة بها عسكري يرتدي الزي الرسمي للشرطة ومعه دفتر وقلم ويمسك جهازا لاسلكيا ويقوم بالرد على أحد الأشخاص، دقائق معدودة وجاءت سيارة الإسعاف، مما جعلني أستشعر أنه هنا يوجد اهتمام كبير بحياة الإنسان وأنه من الممكن أن تنقذ إنسانا بسهولة عكس ما كنت معتادا عليه في مصر أن الإسعاف دائما يتأخر وقد تكون أسباب تأخير الإسعاف كثيرة ليست فقط بسبب المستشفى أو قلة سيارات الإسعاف وإنما قد يكون الطريق مزدحما عن آخره كما نرى ولم يتمكن السائق من المرور بسرعة لا كما يوجد هنا في السعودية.

تحدث معي عسكري الشرطة:

- هل أحد منكم شاهد السيارة التي صدمته؟

- فأجبته: أنا رأيتها.

أخذني معه بعدما قامت سيارة الإسعاف بحمل الشاب المصري المصاب وذهبت معه إلى قسم الشرطة، كانوا يعاملوننا أفضل معاملة، جاء الساعي وقال لي: هل تشرب شايا أم قهوة؟

لم أكن معتادا على ذلك في أقسام الشرطة، وإنما هذه هي المرة الأولى التي حدث معي كرم ضيافة في أقسام الشرطة، تناولت بعض القهوة العربية وأعطيت كل بيانات السيارة لعسكري الشرطة الذي قام بتدوين كل شيء لديَّ مع بيانات المصاب الذي انتقل إلى المستشفى المركزي العام.

رجعت إلى البيت أشعر ببعض الحزن على ما حدث للشاب المصري في الحادث وفكرت ماذا لو حدث لي ما حدث له؟ وماذا لو لم يكن موجودا حولي بعض الناس ليسعفوني أو يحاولوا إنقاذي؟ كم من العار أن يجتنب الإنسان هذه الحماقة أن يصدمك ويتسبب في وفاتك ويذهب مسرعًا وكأنه يعتقد أنه بذلك ينجو، إن نجا من عقاب الناس والشرطة فلن ينجو من عقاب الله وليس عقاب الله في الآخرة فقط، بل قد يحدث له أو لأحدٍ من أفراد أسرته ما فعله في الناس ويكفي عذاب الضمير الذي يحيا فيه ليل نهار وهو يتذكر المشهد المحزن إذا كان ضميره ما زال حيا، ليست أرواح الناس بهذا الرخص ولا هذا التهميش، فماذا لو لم يره أحد؟ وماذا لو توفي هذا الشخص ولديه أبناء وزوجة وأسرة كاملة؟ تساؤلات كثيرة دارت في رأسي هذا المساء الحزين، كالعادة تذكرت يوم حادث الذبح للشاب السعودي الذي قتله ناصر اليمني تلك الليلة تشبه البارحة ولكني لم أسجن هذا المساء ربما لوجودي في مكان عام هذه المرة ومعي الكثير من الناس يشهدون على ما حدث ولكني رأيت الفاعل ولم أتردد لحظة واحدة في الإفصاح عنه لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

في اليوم التالي بعد ليلة عصيبة للغاية جاءني اتصال من قسم الشرطة يخبرونني بأنهم يريدون أن أذهب إليهم اليوم هناك، فذهبت في نفس التوقيت بعدما خرجت مبكرًا من العمل لكي أنهي هذا الموضوع، ولكني علمت بأخبار حزينة؛ عندما ذهبت علمت بأن الشاب المصري قد أصيب بجروحات خطيرة في رأسه وعموده الفقري ويبدو أنه سيكون قعيد الفراش لفترة كبيرة، ولكنهم لم يتصلوا بي ليخبروني بذلك ولكن اتصلوا بي ليقولوا لي إنهم توصلوا للسيارة ولصاحبها ويخبروني أولا هل أنا متأكد من رقم السيارة التي أخبرتهم بها لأنها سيارة لأحد المسؤولين الكبار يقودها أحد أبنائه الصغار وأنك لو أبقيت على كلامك وشهادتك هذه تتسبب في فتح مجالات كثيرة قد تسبب لك المتاعب فيما بعد فنرجو منك أن تتأكد أولا من حفظك للرقم ثم للملامح الصحيحة للسيارة.

زادت حيرتي وبدأ بعض الشك يراودني ولكني أخبرتهم أنني متأكد تماما من السيارة وأن ما أخبرتهم به هو ما رأيته بما يرضي الله، بأن رقم السيارة معروف كما أخبرتكم وأن لونها أسود سيارة عالية عن الأرض كثيرًا ماركة GMC ولو رأيت السيارة مرة أخرى لأكدت ذلك لكم ولو بحثتم عن هذه المواصفات لتأكدتم أنتم بأنفسكم.

-بالفعل وجدنا ما أخبرتنا به كما وضحت ولكن أردنا أن نخبرك أنها ليست ملك شخص عادي ولا من يقودها شخص عادي، أكدت لهم أن ذلك لا يعنيني وأن عليهم التحري خلف ما قلت لهم وأن الأمر بيد الله وحده.

بعد يومين أخبروني بأن هناك أوراقا تثبت أن السيارة التي أبلغتهم عنها كانت في نفس هذا اليوم في مدينة جدة ولم تكن موجودة في الدمام ونحن تأكدنا من ذلك بأنفسنا.

حزنت لما سمعت وتقبلت الأمر الذي ليس لي به حيلة ولم أجادل كثيرًا ولكني أديت ما عليّ من شهادة حق، وأنه وجب علينا أن نراعي الشاب المصري المصاب هذا.

ظلّ الشاب المصري في العناية المركزة مع متابعة من كل أقسام العظام والمخ والأعصاب، كنت أطمئن عليه من حين لآخر، حتى علمت في يوم أنه قد فاق من أثر الغيبوبة التي كان فيها، وبعد إلحاح مني مع الدكتور الخاص به سمح لي بالحديث معه، لم يتحدث كثيرًا ولكني علمت منه أنه من سوهاج فقط.

ثم تابعته كل يوم حتى تحسنت حالته وبدأ الحديث أسهل وعلمت أنه متزوج ولديه ولدان وأنه العائل الوحيد لأسرته ولأبيه، وعلمت أن أبناء عمومته هنا في الدمام معه، ثم أخبرني الطبيب بأنه سوف يكون تحركه فيما بعد عن طريق الكرسي المتحرك فقط وأنه ليس بإمكانه أن يمشي مثل الأول، ضاق صدري بما سمعت وكأنني أنا من تسبب في إعاقته.

شيء ما عجيب رأيته عندما كنت في المستشفى، وجدت قسما خاصا كبيرا يوجد به مرضى يطلقون عليهم مرضى الموت السريري أو الوفاة الإكلينيكية، قررت أن أدخل هذه الغرفة الكبيرة التي بها عناية فائقة وجدت ما يقارب من الثمانية أشخاص ينامون على أسرّتهم البيضاء لا

يحركون ساكنًا ولا يتكلمون ولا يأكلون ولا أرى أي شيء من ملامح الحياة لديهم، إنهم موتى بالفعل، أخبروني بأني لا بد من الخروج فورًا من هنا وكيف دخلت هذه الغرفة بغضب شديد حدثني أحد المرضين هناك، كانت جنسيته عربية استجبت لما طلبه ولكني طلبت منه أن أتحدث معه قليلًا خارج الغرفة فوافق على مضض.

قلت له: أخبرني عن هؤلاء.

قال: هؤلاء كأنهم موتى، ولكن كانوا موظفين في شركة كبيرة تدفع لهم كل شهر تكلفة العلاج في المستشفى، لأن هذا القسم لا يعد مجانيا ولكن عليه مبالغ مالية تدفع شهريا ولا أحد يزورهم نهائيا من أقاربهم أو أولادهم ولا أحد يسأل عنهم نهائيا، إلا بعض القليل جدا من أقاربهم وهذا كل فترة كبيرة من الزمن، ونحن نقوم بعنايتهم ونفعل لهم كل شيء من تقلبات الفراش حتى لا يصابوا بقرح الفراش أو غيرها من الأمراض الناتجة عن عدم الحركة لساعات طويلة على السرير.

سألته:

- هل هذا المرض الذي يشبه المرض الذي أصاب شارون؟

ضحك لجهلي وقال:

- شارون شيء آخر ومرض آخر ولكن كلاهما يعد في غيبوبة مع اختلاف الوضع.

جلست أفكر كثيرا في الأمر وهذا المرض الذي يشبه مرض شارون الذي كان مجرما وقتل الكثير من الأطفال قبل الشباب والشيوخ، فماذا فعل هؤلاء في حياتهم الدنيا حتى يخفف عنهم عذاب الآخرة بهذا المرض الخطير؟!

عدت إلى المصري المسكين في غرفته، فكرت في أمر قد يخفف عنه، قمت بإخبار كل المصريين الذين أعرفهم هنا وطلبت منهم أن يقولوا لكل من يعرفونهم، وكان لدي كثير من المستأجرين الذين أعرفهم، كلما رأيت شخصا أخبرته بما حدث لهذا الشاب المسكين، وجمعت من كل شخص استطاعته من المال، وبحمد الله خلال فترة وجيزة جمعت مبلغا كبيرا ما يقارب الستة والثلاثين ألف ريال، أي حوالي اثنين وخمسين ألف جنيه مصري -كان الريال يعادل جنيها وخمسة وأربعين قرشًا-، كان هذا الخبر ما أثلج صدري حتى يعود هذا الشخص إلى وطنه يستطيع أن يستند على شيء حتى ولو كان بسيطا مع بعض التعويضات من عمله قد يجعل الله له فيها بركة ويستطيع أن يقاوم الحياة.

شكرني جدًّا هذا الشاب المسكين الذي ابتلاه الله وعلمت منه كل بيانات الاتصال به في مصر حتى أتابعه عن قرب وقبل أن يرحل بيومين فقط جاءني اتصال من رقم غريب وقال لي: أنت أكرم حسني؟، أخبرته نعم.

قال لي: أعطني رقم حسابك بالبنك لأمر ضروري يتعلق بالعمل سأخبرك به فيما بعد.

كان الأمر غريبًا بعض الشيء ولكني لم أشك في شيء وأرسلت له رقم حسابي الخاص، ربما قد يكون من أحد المستأجرين وسوف أعلم، بعد ذلك وجدت شخصا يحول لي مائة ألف ريال على حسابي الخاص ويرسل لي رسالة يخبرني أن هذا المبلغ لصديقك الذي صدمته السيارة.

لم أستوعب الخبر ولا المبلغ؛ فمن يتبرع بذلك المبلغ؟ قمت بالاتصال بالرقم، وجدته مغلقا، حاولت مرات عديدة ولا فائدة، ثم علمت من التحويل اسم المحول لي، ثم حاولت بقدر المستطاع أن أعرف أي بيانات عنه من خلال البنك، ولكنهم لم يوافقوا على إعطائي ذلك، وأخبروني بأن هذا ممنوع إلا في الضروريات، وأخبرتهم بما حدث، أريد فقط معرفة بعض التفاصيل حتى يتسنى لي معرفة سبب تحويل ذلك المبلغ الكبير، لم أتمكن من معرفة اسم المحول إلا بعد الاستعانة بصديق لي يعمل في البنك ولكن في فرع آخر، أخبرني بأن ما تسأل عنه ابن مسؤول كبير هنا، ولماذا تبحث عنه تحديدًا؟

ابن مسؤول كبير؟!، هذا ما أخبرني به ضابط الشرطة في القسم بأن السيارة كانت لأحد أبناء المسؤولين الكبار، علمت هذا الخبر وصمتُّ كثيرًا ثم قمت بسحب المبلغ من البنك وخرجت.

ذهبت إلى الشاب المصري وجلست معه بمفردنا وأخبرته بما حدث ولكنه لم يصدق أنه يمتلك كل ذلك المبلغ، نصحته بأن يحول المبلغ من هنا إلى أهله حتى ينزل بسهولة إلى مصر أو يأخذ جزءا ويحول جزءا حتى لا يتعرض لمضايقات الطريق.

شكرني وبكى فرحًا، ثم جاء موعد سفره النهائي من مطار الدمام، ذهبت معه إلى المطار ومعنا بعض أولاد عمومته الذين يندهشون من موقفي معه، أخبرتهم بأننا جميعا قد نكون في نفس الموقف وسيرزقنا الله من يقف بجوارنا فصنائع المعروف دائما وأبدًا تقي مصارع السوء، تابعته حتى بعد نزوله مصر وعلمت فيما بعد أنه اشترى بعض الأراضي الزراعية ويباشرها مع أهله واستقر بها ورضي بما قسمه الله له ويأمل أن يتم الله عليه شفاءه.

من خلال عملي تعرفت على كثير من المصريين هنا في الدمام منهم السيئ ومنهم الطيب المحترم، يرجع كل شخص إلى بيئته وتربيته، كل هذا التعارف جعلني أذهب مع أحدهم إلى ما يطلقون عليه مجلس المصريين الذي ينعقد يوم الجمعة من كل أسبوع بعد صلاة العشاء يجتمع أغلب المشاركين فيه يتعارفون على بعضهم البعض ويقومون بحل مشاكلهم وتقديم خدمات لبعضهم البعض، بعض منهم على علاقة بالسفير المصري هنا والقنصلية المصرية بالرياض، ذهبت إلى هذا المجلس أكثر من مرة ، تعرفت على كثير من المصريين، هناك الذي قامت بيني وبينه صداقة تستمر حتى الآن من بينهم الدكتور خليل، هذا الدكتور من دمياط ويعيش هنا في الدمام منذ أكثر من ثلاثين عامًا وهو أخصائي أمراض صدرية، يعمل بمستشفى خاص هنا، بعد أن قامت بيننا صداقة طيبة بالرغم من فارق السن بيني وبينه إلا أنه كان يرتاح معي ويفتح لي صدره ويحكي عن كل ما يتعبه وما مشكلته التي يعاني منها.

تخيلت أنها شيء كبير ولكن تفاجأت أن مشكلته عبارة عن وساوس أن الناس تفعل له ولأبنائه السحر وغيره من الأشياء الغريبة، تعجبت كيف لطبيب مثله ذي مكانة علمية عالية يدخل في مثل هذه الصراعات ومثل هذه الأشياء ويمشي خلف الدجالين والمشعوذين، فقال: لأني عانيت من صغري من مثل ذلك خاصة أنني من بلدة صغيرة ينتشر بها ذلك السحر والحسد، أخبرني أنه كان يتابع مصريا هنا يطلقون عليه الشيخ صفوت، علمنا بعد ذلك أنه ساحر كبير ونصاب عالمي، هذا الدجال كل هدفه النساء والأموال، جذبني حديثه عن ذلك النصاب وأحببت أن أسمع منه، فسألته: هل أصابك منه شيء؟

-قال: الحمد لله أنه ظهر على حقيقته وتم القبض عليه من الشرطة قبل أن أتعامل معه.

أخبرني بأن كثيرا من المصريين هنا يتعاملون معه لأنه ذاع صيته واشتهر بين النساء خاصة.

-اعتدلت في جلستي ثم قلت له: أخبرني عن الشيخ صفوت.

-قال: ليس شيخ بمعنى كلمة شيخ، ولكن هو نصاب يرتدي جلبابا أبيض مثل السعوديين وغطرة بيضاء ويلتحي لحية خفيفة ويمسك سبحة بين يديه باستمرار.

-قلت: هذا تشويه لصورة المسلم.

قال: هذه عدة النصب لديهم الآن، ولكن التعميم يضر الجميع فأنا مثلا من دمياط ليس لمجرد أنك تعاملت مع شخص من دمياط سيئ تستطيع أن تقول على كل أهل دمياط هكذا، هذا افتراء عظيم وظلم كبير لا يرضى به أحد فالتعميم هنا شيء كالماء والهواء، الناس تعمم في كل شيء. الساحر صفوت يمتلك السحر، أي أنه يعرف اللعبة ويستطيع أن يفعل سحرًا لا أفهم كيف ذلك ولكنه بمجرد جلسة صغيرة مع أي امرأة يستطيع أن يجعلها تحت سيطرته وتفعل ما تريد، ثم بعد ذلك يستغلها في جلب الأموال والمجوهرات الخاصة بها ولكن بعد أن تقوم بعمل له شهرة وسط مجتمع النساء التي تعرفهن. فالحمد لله تم القبض عليه والعثور على أموال كثيرة ومجوهرات داخل بيته المستأجر هنا، وحاليا هو بالسجن، وبعد انقضاء المدة سيرحل إلى مصر.

-وما مشكلتك معه إذن؟

-قال: ليست مشكلة ولكن أنا كنت أتعامل مع هؤلاء حتى حدث لي موقف من أحدهم هنا ولكنْ شخص آخر غير صفوت، كان شابا صغيرا في مثل عمرك تقريبًا يدعي أنه يفك السحر وما إلى ذلك، صدقته وذهبت به إلى ابنتي الكبرى التي تجاوزت الثلاثين ولا يتقدم لها أي شاب مصري أو غير مصري، ثم تفاجأت أنه يحاول أن يتحرش بها، أخبرتني ابنتي فقمت بضربه داخل المنزل وكنت على وشك الاتصال بالشرطة ولكن خشيت على ابنتي.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، يا دكتور ليس تأخير الزواج معناه أن هناك أعمالا وأسحارا لابنتك فأولادك لا أحد يراهم ولا يعرفهم بحكم الغربة

والحياة في السعودية وبحكم تعليمهم الجامعي هنا كذلك، لا بد من الانخراط في الحياة مع الناس حتى يعرفوهم.

-قال: إني أذهب بهم إلى مصر كل إجازة، وأذهب دائما هنا في زيارات ولكن لا جدوى.

-قلت له: هذا ضعف إيمان منك، اسمح لي هذا ليس كافيا أن تلجأ إلى دجالين وتعرض بناتك عليهم لا تعلم نياتهم ولا صدقهم من كذبهم.

-قال: نعم، عرفت ذلك فيما بعد، الآن ابنتي الكبرى تزوجت ولله الحمد من شاب مصري هنا، تساهلت معه في كل شيء لعلمي بمرتبه وأحواله ولم يخذلني فيما فعلت، الحمد لله يعيشان في أتم السعادة.

-قلت: الحمد لله.

أخبرني الدكتور أنه هنا في مجلس المصريين رأى عجب العجاب من المصريين وأحوالهم، في كل جلسة بيننا كان يحكي لي موقفا من المصريين هنا، أخبرني عن محمد جمعة الذي كان يعمل في وظيفة محترمة هنا وكانت معه زوجته الصيدلانية وأولاده ومع مرور الوقت جاء عمل لزوجته التي كانت على إقامته فرفض وهي أصرت على ذلك، ثم وافق هو ولكنها تغيرت بعد العمل مباشرة عندما زاد أجرها وتمكنت من عملها، أصبحت ليست زوجة بالمعنى الحرفي، تفاجأ بوجود خادمة فلبينية في بيته وأخبرته زوجته بأنها هي التي تقوم بعمل الطعام وكل متطلبات البيت لأنها لم يعد لديها الوقت الكافي، ثم تفاجأ بأنها استغنت عن خدماته في توصلها للعمل وجاءت بسائق كل يوم في نفس الموعد مقابل مبلغ شهري، كل ذلك أثر

كثيرًا على علاقتهما التي انتهت بالفعل بالطلاق وقد تركت أولادها، وما إن جلست أقل من عامين ثم حدث لها مشكلة في العمل تركت على أثره السعودية بأكملها ورجعت مصر وهو تزوج أخرى ومعه أولاده.

مشاكل هنا لا حصر لها أغلبها ناتج عن حب الدنيا وطول الأمل وناتج عن صراع الرجل والمرأة وعدم معرفة أدوارهما في الحياة؛ فالمرأة التي خلقها الله في الأساس لترعى بيتها وزوجها وتربي أجيالا تركت كل ذلك ونزلت للعمل فحدث خلل كبير في كل أسرة وبعض الأزواج تخلى عن قوامته واعتمد على جزء كبير من مرتب زوجته فحدث لبعض الزوجات ندية وظهرت المشاكل التي لا حصر لها، الآن قد تكون هناك زوجات تعمل وليس لديها مشاكل مع زوجها ولكن تأكد أن لديها تقصيرا في شيء ما، هذا بخلاف أن وجهة نظري أن المرأة لا تعمل إلا للضرورة لأن لديها ما هو أهم وهو تربية الأجيال تربية صحيحة، وهذا أخطر عمل على وجه الأرض.

كنت أستمتع بحكايات الدكتور ولكني كنت أزداد حزنًا لسوء أحوال المصريين هنا دون غيرهم؛ فأنا أعتقد أن أكثر التعساء هنا المصريون والبنجلاديش.

وفي يوم سألته عن أكثر المشاكل التي تأتي إليهم هنا فقال: أغلب المشاكل بين الكفيل والمكفول، كل مرة تقريبًا نجتمع فيها بشاب مصري يشكو من ظلم كفيله وعدم أخذ راتبه منذ خمسة أشهر أو أكثر أو أقل، وآخر لا يستطيع النزول لمصر والسفارة لا تستطيع حل كل هذه المشاكل فهناك مشاكل معقدة؛ مثلا من وقت قريب شاب مصري جاء عن طريق

مكتب في مصر وقع على عقد أنه محاسب وهو ليس كذلك، ثم وقع على بنود العقد كاملة التي تنص على أنه إذا قرر الاستقالة فعليه دفع كل المبالغ المالية المستحقة منها ثمن التأشيرة بالكامل وثمن عمل الإقامة وثمن التأمين وكل ذلك قام بالتوقيع عليه هنا وفي المكتب بمصر، ثم جاء على أساس أنه يخرج من مصر والسلام ويستطيع أن يتصرف في السعودية، هكذا فكر ثم جاء هنا وجد مطالب كثيرة، مُطالب حقًّا بأن يكون محاسبا مُطالب بأعمال أخرى غير الحسابات، مُطالب بقيادة السيارة وتوصيل زوجة الكفيل، مطالب بأشياء كثيرة، وجد نفسه في مأزق كبير لا يستطيع أن يخرج منه فقدم شكاوى كثيرة في مكتب العمل الذي بطبيعته يميل إلى السعودي فما بالك إذا كان السعودي يملك مستندات موقعة من هذا الشخص بأنه مُطالب بهذه الأعمال.

-قاطعته: ولكن ليس موقعا بينهما في العقد أنه يعمل سائقا لدى زوجته ولا الأشغال الأخرى.

-فقال لي: هكذا هنا يريدون شخصا مثل المُعلم الكشكول يعطي كل المواد، يريدون موظفا زئبقا يشتغل كل الوظائف بالإضافة لنقل أخبار الموظفين الآخرين والبحث عن أقل التكاليف في كل شيء.

شردت بذهني إلى ما رأيته من بعض الموظفين معي أغلبهم مصريون يفعلون هذه الأفعال الغريبة ربما كان الأمر مطلوبا منهم ولكن أين الأمانة والتربية التي تجعلهم ينقلون أخبار زملائهم ويفتنون عليهم في كل همسة وكل كلمة، ليست حياة هذه وإنما مجتمع مخابرات قذر، وماذا يستفيد

الكفيل من مثل هذه المهاترات؟! هل يريد إمساك زلة على المكفول أم يريد أن يوقعه في الخطأ وبالتالي لا يستحق أن يزيده فى المرتب أم ماذا يريد؟! هل يريد أن يرحله إلى بلده فمن الذي يمنعه من ذلك؟! فلماذا كل هذه الأفعال العفنة؟!

وأغرب ما رأيت هنا البنات التي تترك مصر وتأتي هنا بمفردها، هؤلاء البنات يعانين كثيرًا، فضلا عن التحرش والنظرات الغريبة التي يرينها في كل من يتعاملن معه وكأنهم لا يرون نساء، هذا جعلهن مستضعفات هنا ويشعرن ببعض الخوف.

تعاملت مع بنات كثيرة هنا مصريات، أغلبهن كن ممرضات في مستشفيات خاصة هنا وبعضهن مدرسات والقليل من الطبيبات، وجدت الكثير منهم يهرب من ماضٍ قاسٍ في مصر وبعضهن يسعين لتحسين حالة آبائهن فهن يحملن هم العائلة أكثر من بعض الشباب الذين لا يعرفون المسؤولية.

ومن هذه الفتيات بنت اسمها سهام من محافظة الإسكندرية سافرت من مصر وحدها بموافقة زوجها، ثم جاءت هنا تعمل ممرضة في مستشفى خاص ثم قدمت على استقدام لزوجها وأولادها وعانت كثيرًا بين أولادها وعملها هنا لأنها بمفردها واستقرت على جلب مربية هندية لأولادها فعانى الطفل الصغير معاناة كاملة بين حنان الأم وحنان المربية وأيهما تكون أمه وأيهما أحن عليه وكذلك طفل رضيع يتعلم الكلام ماذا يتعلم هل يتعلم العربية أم يتعلم الهندية؟ أيهما أقرب إلى قلبه؟ أكثر من ثماني ساعات

تجلس معه مربية أعطاها الله الحنان والعطف على هذا الرضيع تحدثه بالهندية وتداعبه بالهندية وتعطف عليه بالهندية ثم تأتي أمه لتعطيه بعض الحنان والحب بما تبقى لها من مجهود بعد يوم عمل شاق، فضلًا عن احتياج زوجها وباقي أولادها وهي منهكة القوى من العمل وكذلك كانت تسعى أيضا بكل الطرق لحصول زوجها على وظيفة ولكنه كان قليل العزم ضعيف المسؤولية، فهذا نموذج مصغر من بنات مصر هنا في الغربة.

الفصل السابع

(إجازة لمصر)

ما أسرع الأيام وما أصعبها على الفارغين، وما أيسرها على المشغولين، مر عامان بسرعة جنونية وحان وقت إجازتي إلى مصر لم أكن أعلم أن الأيام هنا تمر بهذه السرعة إلا عندما أخبروني بموعد قرب إجازتي ولم أكن مستعدا استعدادًا كافيًا ولكني سرعان ما تجدد بداخلي الشوق والحنين إلى بلدي، لم أتردد لحظة وحددت موعد نزولي إلى مصر، كان العقد ينص على أن التذكرة عليهم ما عدا أول مرة في الذهاب من مصر، والآن أصبح عليهم أن يدفعوا لي ثمن التذكرة ذهابًا إلى مصر وإيابًا إلى السعودية مرة أخرى، لم تكن هذه الإجازة إلا لتفريغ شحنات سلبية اكتسبتها في غضون أيام مليئة بالحزن والكبت والشعور أحيانا بالضعف وقلة الحيلة، كان لا بد منها في هذا التوقيت لتجديد نشاط ذهني أو تجديد نشاط روحي، كل ما دار في ذهني وقتها سرعة التخلص من المسؤوليات التي تعيقني كل يوم والروتين الذي أحياه يوميا، لم أكن أعلم أن القلوب تحمل كل هذا وتنتظر الإفراغ، إفراغ من مسؤوليات جمة وحمولة على أكتاف اقتربت على أن تتحطم، إنني أعلم أن الطريق ما زال طويلًا ولم أقدم شيئا حتى الآن ولكني تعبت كثيرًا أريد أن أتوقف لحظات لكي أستجمع قواي مرة أخرى حتى أستجمع روحي أيضا التي فارقتها البسمة والفرحة.

عدت إلى مصر مع فرحة عارمة، شوق وحنين يملآن قلبي سعادة بإجراءات السفر والطائرة والنزول إلى مطار القاهرة، سعادة الوصول تكفي لإفراغ أغلب شحناتي السلبية التي أحملها، لم يكن أحد بانتظاري ولم أحب ذلك كعادتي، وجدت مجموعة من سيارات التاكسي تنتظر بالخارج أقربهم مني ركبت معه، كنت سعيدا بأجواء القاهرة التي لم تتغير كثيرًا عما

تركتها ولكني شعرت لبعض اللحظات أن الناس قد تغيرت من خلال تعاملهم معي عند الخروج ولكن ليس هذا مقياسا سنرى ما تخبئ الأيام.

وصلت إلى البيت، طرقت الباب، قابلتني أمي، لم أكن أصدق كل هذا التغيير عليها، لقد هرمت في غضون عامين، لم تكن تلك التي تركتها، حضنتها كثيرًا وهي كعادة الأمهات تعبر عن فرحها بالبكاء، حتى المنزل تغير كثيرًا ربما لأنني تعودت على منازل السعودية، وجدت الكثير قد تغير حتى حجرتي التي كانت لي فيها ذكريات كثيرة لم تعد حجرتي وإنما ذهبت مع السفر واحتلها إخوتي، لم أحزن فهم أولى مني بها وأين أنا الآن وأين أقيم وهل يعود المغترب كما كان قبل أن يرحل أبدًا؟

كانت إجازتي خمسة وأربعين يومًا، كان عليّ أن أفعل كل ما أريده فيها ولكني لم أحدد ما أريده، فضاعت أغلبها في البحث عن زوجة المستقبل التي بدا لي أن الأمر في غاية الصعوبة، لم تكن هناك فتاة بعينها أريدها ولم يكن هناك من تنتظرني ولم يكن لدي خبرات سابقة في مثل هذه العلاقات السرية قبل أن أسافر، فحدث ما كنت أقرأ عنه منذ سنين وأخشاه حدث أنني أبحث بحثا عشوائيا يعتمد على مقابلة ورؤية شرعية وأنا وحظي.

كان الأمر صعبا للغاية أن تأخذ موعدا من أهل فتاة عن طريق أحد المعارف أو صديقات الوالدة ثم تذهب محملًا ببعض الهدايا التي بناء عليها يقومون بتقييمك من ناحية إذا كنت بخيلًا أم غير ذلك، ثم تقييمك شكليا وتقيم ملابسك وتقيم جوالك وحذاءك، ثم بعد ذلك يقدمون الشروط التي تليق بمغترب مصري يقيم بالسعودية، كوميديا الزواج في بلدنا لا

يسعك بعد أن تسمع كل هذه الشروط إلا أن تخرج وتضحك كثيرًا ولن تعود مرة أخرى، ولكن لم يكن لي حيلة إلا الموافقة على مثل هذه الأشياء عسى أن أجد من تناسبني خاصة أنني قليل المعارف والأصدقاء وكانت علاقاتي محدودة جدًّا قبل السفر.

في يوم من الأيام اتصل بي هاتفيًّا صديقي أحمد إسماعيل الذي وقف جواري في السفر عن طريق عمل جمعية من الأموال وقمت بأخذها ورددتها له عقب سفري، قال لي:

- توجد عروسة مناسبة صديقة زوجتي من الممكن أن نأخذ موعدا من أهلها ونذهب سويا إذا أحببت وتتعرف عليهم وتقرر وتستخير، فما رأيك؟

أجبته بالموافقة: ولكن هل زوجتك تعلمها جيدًا؟ هل تثق في أخلاقها وأخلاق أهلها؟ وما مستوى تعليمها؟

أجابني بأن زوجته لا بد أنها ستشكر فيها ولكن يبقى أنت الذي يحدد كل ذلك، فوافقت وانتظرت منه ردا على الموعد، ساعات قليلة وأجابني بالموعد.

ذهبنا سويا باصطحاب زوجته وعندما فتح لنا الباب والدها استبشرت خيرًا كان والدها يظهر عليه أثر الصلاح يبدو وكأنه من أهل الجنة، سعدت جدًّا بما رأيت، أجلسنا في غرفة الاستقبال كان البيت مهيئا جدًّا لاستقبالنا ويبدو أنهم تعبوا جدًّا في تنظيفه وتهيئته، ذهبت زوجة صديقي إلى غرفة العروسة ونحن في الاستقبال ودار ذلك الحوار بيني وبين أبيها:

-كيف حالك أستاذ أكرم؟

-الحمد لله.

-يبدو أنك ذو حياء شديد.

-لا أبدًا ولكن هذه تجربة جديدة وخبرتي قليلة.

ضحك بصوت عالٍ:

-خبرة إيه يا راجل، هو أنت جاي تقدم على وظيفة؟!

-لأ أصعب شويا.

ضحك مرة أخرى:

-إنت خريج إيه يا أستاذ أكرم؟ كلمني شويا عن نفسك.

-أنا خريج تجارة دفعة ٩٩ وشغال محاسب بالسعودية.

-على كده يا أستاذ أكرم إنت مرتبك عالي في السعودية؟

أثار سؤاله صمتي، لم أكن أتوقع هذا السؤال تحديدًا، لا أدرِي هل من حقه أن يعرف مرتبي أم لا، ولكني أشعر بعدم الإفصاح عن ذلك.

-أخبرته: إن شاء الله لو في نصيب بنت حضرتك لن ينقصها شيء وإن لم أكن قادرا على فتح منزل لما جئت اليوم هنا.

حرك يده اليسرى ناحية خده الأيمن وهو يمرر بالسبابة على خده ونظر نظرة نحوي وقال:

-ليس كل من بالسعودية مرتاحا أو يأخذ أجرا مغريا، ولكني أريد أن أعرف هل ستأخذ بنتي معك للسعودية إذا سافرت أم تتركها هنا؟ هذا طبعا لو في نصيب.

سؤال آخر لم أعد له إجابة، يبدو أنني لم أذاكر جيدًا، ثم فاجأني بسؤال لا أدري كيف لي لم أحدد إجابته بشكل كافٍ.

-قال لي: هل لديك شقة؟

-فأجبته: سوف أستأجر شقة إيجار قديم، لدي صديق فعل ذلك بمقدم ومبلغ شهري معقول وبعقد مدة ستين عامًا.

لم يعجبه هذا التفكير وهذا المصير، وجدته يخرج إلى الغرفة المجاورة وينادي على صديقي أحمد إسماعيل الذي جاء محرجًا مني وأبلغني بأننا يجب أن نرحل لأنه لا يوافق عليك، وفضل ألا ترى ابنته من الأساس.

شعرت بغضب شديد وانتفضت من مقعدي وخرجت مسرعًا نحو الباب وتركت أحمد وزوجته وهو ينادي عليّ، كان الرفض قاسيا جدًّا ولم أكن أتخيل كل هذا الكبر في المعاملة، فماذا لو كنت قد قمت بزيارته قبل سفري وقبل عملي وأنا عاطل؟ هل كان سيرميني بالرصاص؟

ربما يكون محقا فهو أب والأب يبحث عن سعادة أولاده وهو رأى أنني لا أصلح لإسعاد ابنته، يومان ونسيت الموضوع برمته ولكني خرجت منه بمعلومات لا بأس بها، وجدتني أضع إجابات لأسئلة لم تكن في حسباني حتى عندما يسألني أحدهم مرة أخرى سأكون على استعداد تام للإجابة.

كانت الإجازة قد اقتربت وأشارت عليّ والدتي بأن هناك بنت جيرانهم تريدني أن أذهب إليهم وأتعرف عليهم، ذهبت دون مبالاة هل يوافقون أو يرفضون هل تعجبني أم لا أعجبها، ذهبت دون أمل بمعنى أصح.

ذهبت وتعرفت على أهل البيت كانوا متواضعين للغاية معي وقاموا بالترحاب بشكل كبير خاصة والدتها مع والدتي اللتين يعرف بعضهما البعض من فترة.

جلست مع الوالد الذي لم يسألني في أي شيء قط وكان أغلب حواره معلومات عامة يبدو عليه أنه لا يبالي هو الآخر.

ثم جاءت العروس المنتظرة، كان اسمها "منارَ"، عندما رأيتها وجدت في وجهها حزنا، جلسنا بمفردنا على قرب منهم، ثم تحدثت إليها وهي لا ترد بأي كلمة ولا تنظر إليّ، ثم بعد طول انتظار أجابتني قائلة:

- إنها مرتبطة عاطفيا بشخص آخر وهو غير جاهز للتقدم الآن وأحبت أن تصارحني من الآن حتى لا أنخدع، ومن الأفضل عدم إخبار أهلي بذلك.

كنت في حالة ذهول من هذه البجاحة التي تحدثني بها والصراحة الغريبة التي لم أعهدها على بناتنا منذ زمن، ربما كانت صراحتها لي طوق نجاة خاصة أنها أنهت الموضوع قبل أن يبدأ وقالت ما لا تستطيع بنت أن تقوله لشخص يتقدم لأول مرة. هل هذه جرأة أم هذه وقاحة؟ لا أدري ولكني فضلت الصمت ثم قمت من مكاني وألقيت عليهم السلام وأخذت أمي وذهبت وهي تحدثني: ما رأيك فيها؟ وهي تعدد صفاتها الجميلة من أدب وحياء ولا ترفع عينها من الأرض، ومن البيت إلى الكلية ومن الكلية إلى

البيت. نظرت إليها وقمت بطبطبة على كتفها وقلت لها: يا أمي كل شيء قسمة ونصيب، لا أحد يفتح معي هذا الموضوع مرة أخرى.

اقتربت نهاية الإجازة ولكني تعلمت في الإجازة القصيرة هذه أشياء كانت غائبة كثيرًا عني، لم أكن أدرج كل ذلك في حسباني، توقعت أن الناس تعاملني كما أنا، لا تعاملني على أنني مسافر ويظنون أن المسافر يحمل كنوز قارون، الناس تفهم كثيرًا من الأخطاء عن المغتربين خاصة من يقطنون دول الخليج، الناس تبحث عن المظهر حتى البنات أنفسهن حتى اللواتي حصلن على قسط كبير من التعليم لا يهمهن إلا المظاهر بداية من المال والوظيفة والشهادة والسكن والشكل، تفهمت بشكل سريع لماذا الناس في مصر تنفصل سريعًا عكس ما كان يحدث في الأعوام السابقة على أيام آبائنا وأجدادنا، الناس الآن تغيرت يبحثون عن الجاهز بالأموال من يريحهم حتى ولو كان ذا أخلاق ضحلة ولكنهم يريدون ذا الجيوب العامرة، لا شك أنهم يدفعون الثمن سريعًا ولكن لا أحد يتعلم من أخطاء أحد الكثير لا بد أن يخوض التجربة بنفسه حتى يتعلم.

انتابني الشعور القديم نفسه قبل سفري أول مرة كلما اقترب موعد السفر، شعور بالألم لماذا لا أعلم مع أنني تعودت على الغربة وربما وجدت بعض الألفة بيني وبينها ولكنه شعور يراودني قبل الرحيل، طفت سريعًا على زملائي الذين تغير حالهم للأفضل لا أدري كيف كانت أيامهم من غيري ولكني وجدت أغلبهم أفضل حالًا مما تركتهم عليه، بعض منهم تزوج

ومستقر بحمد لله في زواجه، وبعض آخر بدأ سلم الوظيفة الحكومي وبعض آخر التحق ببعض الشركات الخاصة القوية.

لم يكن الأمر مقارنة بين حالي وحالهم ولكني شعرت بأنهم مستقرون أفضل مني ومرتاحون نفسيا أكثر مني ولكنهم أيضا لا يعجبهم حالهم ويشكون دائما من البلد والمواصلات والشقق والغلاء، لا أحد يعجبه حاله قط حتى المليونير يحترق دمه يوميا على أسهمه الهابطة في البورصة، وحتى أصحاب العقارات والأراضي يريدون المزيد وحتى النساء في بيوتهن ينظر بعضهن إلى بعض ولا أحد يحمد الله من قلبه حقا.

بعض الناس لا يعرف النعم إلا عندما يفقد ما لديه، ولكن قد يفوت الميعاد وتنتقل الراحلة من مكان إلى آخر، رددت في نفسي أنني بخير وأن الله رزقني الكثير ويجب عليّ أن أرضى أولًا بما لدي حتى يعطيني ما أتمنى ويزيدني، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧ .

حدثت نفسي قبل الرحيل ربما لم يشأِ الله أن أرتبط الآن وأجد من تناسبني، ربما يخبئ الله لي الزوجة المناسبة في المستقبل، وأن هناك دائما أملا مع الصبر وأنه لا بد أن يكون هناك من تشبهني وتحفظ قلبها كما حفظته والله لا يظلم أحدًا أبدًا.

كنت أواسي نفسي حتى موعد رحيلي الذي كان أشبه بالضرب في الميت كنت أشعر بلا مبالاة غريبة، صمت غير عادي يأس من كل شيء لا أدري كيف وصلت لهذه الحالة، كنت أسير دون كلام، أمشي في الطرق دون حتى

تبسم حتى وجدتني أضع رأسي على مقعد الطائرة وأذهب في نومي حتى أيقظتني المضيفة على حزام الأمان.

الفصل الثامن

(العودة إلى الغربة مجددًا)

عدت إلى عملي وإلى رطوبة جو الدمام وحرارة طقسها وعدت إلى حرق الأعصاب مع العملاء والعمال، لا شيء جديدا إلا قصص العابرين من قبور الغربة يطرحون عليّ كل يوم ما ألم بهم من قسوة الأيام، إلا أنني كنت أقف عاجزًا عن فعل شيء لهم، أردت أن أفعل شيئا ولكن لا أستطيع، فكرت أن أذهب إلى السفير المصري في الرياض وأقص عليه ما يحدث للمصريين هنا من مشاكل إلا أنني علمت أنه يعلم كل شيء ولديه أمامه من أوراق ما ينص على ذلك ولكن دون جدوى.

جاءني هاتف من أبي طلال يخبرني بأنه قادم إلى الدمام في الغد وسيأتي إلى المكتب لمراجعة كل شيء، كنت على استعداد من المساء له وتوقعت كل سؤال قد يدور في ذهنه أو ذهن أي شخص يمتلك عقارات ويريد الاطمئنان على أمواله، كان لأبي طلال مكتب صغير في فرع الدمام جاء عليه فور دخوله فرع الشركة، سلم عليّ بترحاب وعلى باقي الموظفين ومن كان موجودا من العمال في التوقيت نفسه، الحقيقة أن أبا طلال يمتلك شيئا مهما هو التواضع بالرغم أنه يعد من أصحاب الملايين إلا أنه كان متواضعا جدا، وعلمت منه بأنه سوف يزور الدمام كثيرًا لأنه تزوج من زوجة أخرى وتقيم هنا في الدمام بخلاف زوجته الأولى التي تقيم معه في الرياض، وأخبرني بأنه سيكون موجودا في الغالب أسبوعيا، قد كان هذا الزواج المدخل الرئيسي لمعرفة شخصية أبي طلال عن قرب حيث إن كثرة زيارته لفرع الدمام أظهرت لي من هو الكفيل، كانت تعاملاته عبر الهاتف ومن خلال الفترة القصيرة التي قضيتها في الرياض لم تكفِ لمعرفة ما

تحمله شخصية أبي طلال، كان أول انطباع لي عنه في مكتب السفريات بالقاهرة أنه بخيل ولكن الآن تأكدت بأنه شديد البخل.

بدأت الزيارات تزداد ويكون دقيقًا إلى حد ما معي في التفاصيل، لم أكن أعلم حقا نعمة أن يكون كفيلك بعيدًا عنك إنه شيء مريح للغاية ليس للهروب من المسؤولية ولكن وجود الكفيل يعني وجود فكر صاحب عمل بمعنى قد يكون فكره مشوها أو فكره معقدا ويريد أن يطبقه على أرض الواقع، خاصة إذا ظهر أنه بخيل، كان البخل أول داء لاحظته في أبي طلال ذلك المليونير الذي لو جلس يصرف في أمواله حتى نهاية عمره لا تنتهي إلا أنه كان يخشى أن يُخرج ريالا واحدا من جيبه لعامل نظافة يقف في إشارة المرور في درجة حرارة تتعدى الخمسين درجة مئوية، كان بخيلًا لدرجة أنه يؤخر الرواتب لمدة شهر أو أكثر لضمان السيطرة على أي عامل أو موظف يفعل أي شغب أو أي تلف حتى يستطيع أن يخصم من راتبه بسهولة، كان بخيلًا لدرجة أنه يطفئ الأنوار لتوفير الطاقة ويبقي على إضاءة خفيفة وإذا رأى أحدا من الموظفين يضيء نور غرفة لم يكن يجلس فيها كان هناك سيل من الاتهامات والخطب الرنانة عن التوفير وأن هذا لو كان في بيتك ما تركته وما فعلت ذلك إلا أنه ما دام في شركتك فلا تبالي، بل كان بخيلًا على نفسه في إحضار وجباته وطعامه كان يبحث عن السعر أولًا ثم بعد ذلك الجودة بل كان يقلل قدر الإمكان من مطعمه خشية الإسراف وبخيلًا على من حوله وبخيلًا على أهله، فلا أحد يتعامل معه إلا ويستنبط ذلك البخل الذي يظهر على البخلاء عادة.

كان الأمر يقتضي عليّ أن أتعلم كيف أتعامل مع هذه الشخصية عن قرب، إلا أنني استشرت بعض أصدقائي القدامى هنا عن كيفية التعامل مع مثل هذه الشخصيات فأجابني صديقي بأن هنا بعض السعوديين يحبون الثناء حتى ولو كنت تنافقه، امدح في كفيلك امدح ثوبه وعطره وغطرته وحذاءه، أخبره بأن ذوقه جميل وأن لون سياراته باهر وأن النظارة الشمسية التي يرتديها لا يرتديها إلا أصحاب المناصب الرفيعة وأنه متواضع وكريم، حتى ولو لم يكن كريما، إن لم تقل هذه الكلمات باستمرار ستفقد مكانك قريبًا ولن تكون محببًا إليه.

هنا النفاق يحتل المرتبة العليا بين المغتربين، كان هذا ما رأيته عندما قدمت الرياض أول مرة وجدت الشركة كلها نفاقا إلا من رحم الله، الكل يتظاهر بحب الكفيل، الكل يمدحه أمامه ومن خلفه يسبونه، لا أحد يحبه حبا صادقًا إلا أنني كنت لا أستطيع أن أنافق أو أتخيل نفسي مثلهم هكذا نفضت يدي من كل ذلك فكان عاقبتي أن العلاقات بيننا بدأت تتدهور وبدأ اصطياد الأخطاء ولكني لم أتغير عن مبادئ ولو مرة.

كانت الأيام تميل إلى الرتابة والملل مع حرارة الجو ورائحة التكييف كان لا بد لي أن أبحث عن منفذ، يريح هذا الكم الهائل من الأعصاب المحترقة بداخلي، كل يوم يمر عليّ يزداد شعور بأن الغربة مقبرة نحيا بها حياة الأحياء، لا طعم لشيء أبدا فيها، حتى ولو كانت مبهرجة بزينة إلا أنني لم أكن من محبيها، فالغربة تظهر لي كطبق من الفاكهة الجميلة ذات الألوان المبهجة ولكن عندما تقترب منها تجد الفاكهة مصنوعة من البلاستيك، لا

طعم لها ولا رائحة ولا تستطيع إلا أن ترى زينتها من الخارج، أو طعام تركته منذ أيام وعدت لتأكله اليوم تتناوله من شدة جوعك ولا تستمتع بطعمه ولا تشعر بحلاوته، هكذا شعرت بالغربة عندما حَيِيتها.

في يوم عرض عليّ أحد الأصدقاء أن أذهب معه إلى إحدى الساحات الرياضية هنا التي يتجمع فيها مجموعة من أصدقائه القدامى الذي تعرف عليهم مع مرور الوقت في الغربة، وقامت بينهم صداقة من نوع جميل تسمى صداقة الملعب، كانوا يقومون كل مساء يوم الخميس بلعب الكرة لمدة ساعتين، فلم أجد إلا الموافقة على ذلك العرض المغري، الذي كان متنفسًا جديدًا لي من عالم الغربة الكئيب وفي نفس الوقت فرصة للتعرف على أشخاص جدد واكتساب صداقات جديدة.

جاء هذا اليوم كان فعلًا يومًا بهيجًا للغاية استمتعت به خاصة بالتعارف الجديد بيننا كان الأغلب مصريين باستثناء بعض العرب والسعوديين ويظهر على الجميع أنه جاء لفك الضغط النفسي الرهيب الذي نتعرض له يوميا، مع مرور الوقت تعارفنا جميعًا حيث حفظ كل واحد منّا اسم الآخر وبدأنا في الأوقات التي نكون فيها في الانتظار خارج الملعب نتبادل الحديث فيما بيننا.

كان أول من تعرفت عليه شاب مصري يسمى مصطفى أبو حبيبة يلقبونه باسم ابنته كما يحب هو ذلك التي أخرج صورتها من محفظته وقال لي: "هذه حبيبة لا تفارقني"، وهو ينظر إليها في اشتياق كان متأثرًا

للغاية، وبدأ في استرسال فيما يلم بصدره، أنا كنت مستمعا جيدا مع الجميع لذلك كان الجميع يرتاح معي في الحديث.

سرد مصطفى أبو حبيبة ما يعانيه في الغربة بداية من زوجته التي تزوجها منذ أربع سنوات وخلال هؤلاء الأربع لم يلتقِ بها سوى ثلاثة أشهر تقسم شهرا ونصفا عند الزواج وشهرا ونصفا عند أول إجازة بعد عامين كاملين، والآن ينتظر العودة.

كان الأمر شاقا عليه وزوجته تغضب بسبب ذلك كثيرًا حيث إن العقد بينه وبين كفيله ينص على الإجازة بعد عامين كاملين ولا يحق للموظف أخذ إجازة قبل ذلك إلا لشيء اضطراري للغاية وذلك لا بد من توافر شروط له فضلًا عن أنه تكون تكلفته كاملة على حساب الموظف، وكان يزداد حنينه إلى ابنته خاصة وهي تكبر بعيدة عنه ويمسك بصورها وتدمع عيناه، يبدو الأمر هينًا إلا على من جربه ويحمل قلبًا رقيقًا مثله، خاصة إن أفراد عائلته كانوا يرحلون واحدا وراء الآخر وهو في الغربة فقد رحل عنه عمه الذي كان يحبه حبا كبيرًا والذي وافته المنية منذ ستة أشهر وتلقى الخبر عبر رسالة على جواله، يا له من هوان على النفس عندما تفقد أعز أقربائك وأنت بعيد تمامًا لا تستطيع أن تحضر عزاءه ولا تقوم بتشييع جنازته، شددت من أزره حتى فرغ الجميع من المباراة ثم عدنا إلى بيوتنا.

وفي الأسبوع التالي تعرفت على أحد الشباب الآخرين يسمى بلال هادي كان شابا لا يتكلم كثيرًا يلتزم الصمت لأغلب الوقت لا يبتسم إلا نادرًا

تقربت منه وتعرفت عليه عن قرب، مددت يدي إليه: كيف حالك أخ بلال؟ رد بابتسامة بسيطة: الحمد لله أستاذ أكرم.

كنا قد تعرف بعضنا على أسماء بعض في المرة السابقة ولكن هذه المرة أريد أن أتعرف عنه أكثر.

-سألته: يبدو أنك تحب العزلة بعض الشيء.

-قال: نعم هذا شيء محبب لي بالرغم من أن عملي لا يحب ذلك.

-فقلت له: ماذا تعمل؟

-قال: مندوب مبيعات منتجات غذائية شاملة اللحوم وأصنافها.

-قلت له: فعلًا المندوب يحتاج شخصا أكثر ثرثرة رأس ماله الكلام يجيد إقناع العملاء بسهولة.

-قال: نعم ولكني اعتدت على ذلك فضلًا أن عملائي أصبحوا ثابتين قليلًا ما يدخل عميل جديد الآن السوق.

-قلت له: هل أنت مرتاح في عملك؟

-رد مع سخرية: وهل أحد مرتاح في عمله يا أستاذ أكرم؟!

-قلت له: نعم هناك القليل.

-قال: أنا لست من هؤلاء القليل.

-فقلت: لماذا؟

-قال: لأني عملي به كثير من المصريين وهنا في المملكة أي عمل به مصريون كثيرون يكون عملًا شاقا أشبه بالسجن ينتشر فيه الحقد والغل بينهم ينتشر بينهم نقل الكلام وفضح الأسرار ينتشر اصطياد الأخطاء لبعضهم البعض، الكثير يرمي المسؤولية من على أكتافه وكلما كنت صغيرًا وجديدًا في العمل تكون معاناتك أكثر، فضلًا عن أن في نظام عملي هناك شيء يسمى "تحقيق التارجت" وهذا عبارة عن وصولك لنسبة مبيعات معينة من إجمالي المبيعات الكاملة بحيث يجب أن أحقق ٨٥ % حتى أحصل على نسبتي أو عمولتي التي تكون هي كل مرتبي لأن مرتبي الأساسي لا يكفي حتى للطعام والسجائر والاتصالات وكل اعتمادي على العمولة وهذه العمولة لا تتحقق كل شهر بمعدل ثابت ولكن تتحقق بناء على احتياجات السوق وهذا ما أعانيه خاصة كثرة الشركات المنافسة والأسعار الأقل ونحن لا يوجد تطوير ولا تجديد لبعض المنتجات فبقي الحال كما هو عليه بل ربما تقل المبيعات بالتدريج.

أما أحمد خالد فقد كانت غربته مختلفة تمامًا عن كل أصدقاء الملعب، قص علينا قصته يقول لنا: كفيلي مصري وما أدراك أن يكون كفيلك مصريا، كان مستثمرا في المملكة من الفطاحلة الذين جمعوا ثروة كبيرة منذ التسعينيات ومستمر حتى الآن، أنشأ مصنعا للبلاستيك ويقيم هو وأسرته هنا منذ سنين، ولكن أصبح شخصا مريضا نفسيا وهذا من وجهة نظري وقد أكون مخطئا ولكن ما أراه منه لا يقول غير ذلك حيث يحكي لنا عن معاناته في الصغر حيث كان فقيرًا للغاية وكافح حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وكل ذلك شيء جميل ولكن الأسوأ أن ترى أثر الجوع عليه

حتى الآن، يخبروننا أن نتقي شر الجائع عندما يشبع، ولم أكن أعي هذا المثل قديمًا حتى رأيته في هذا المستثمر المصري الذي يظهر عليه الجوع حتى الآن بالرغم من أنه من أصحاب الملايين، ولكن الإنسان قد يصل إلى أعلى مراتب الغنى ولكن ما زال في نفسه آثار تربى عليها منذ الصغر، هذا المستثمر الكفيل المصري بمعنى أصح أول طلب يطلبه مني أن أكون له مخبرا أو بمعنى أصح موظفا مخبرا أنقل له كل ما يحدث من أصدقائي هنا وعندما رفضت ذلك قام بالتربص لي، كل لحظة يقوم بتأخير راتبي عن باقي الموظفين ثم يتربص بي أي خطأ ويقوم بالخصم من راتبي ثم بعد ذلك علمت أنه يفعل ذلك مع باقي الموظفين خاصة المصريين، ومنهم من يوافق ويفعل ما يأمره به وقد يبدعون في ذلك، ومنهم من يرفض ذلك ويقوم بالتربص به أيضا كما يفعل معي، وينتهي أحدهم بطلب الخروج النهائي على أثر الضغط العصبي الذي نحياه في هذا المصنع العجيب، غير أنه على صعيده الشخصي أولاده يكرهونه فيما يبدو لنا لأنه أولا بخيل، وثانيًا يتزوج في السر على والدتهم ويعرفون فيما بعد، علمنا عنه أنه تزوج أكثر من مرة من جنسيات عربية ومصريات هنا، وفي العمل يريدنا أن نعمل أكثر من ساعات العمل ولا يحق لنا أن نطلب أجرا عن هذه الساعات ولو أحدنا تأخر عن موعد العمل يقوم بالخصم من مرتبه حتى علم بنظام جديد عن الحضور والغياب (البصمة)، قام بشراء ذلك الجهاز وبرامجه حتى يرتاح من ذلك ويقوم بالخصم عن طريق البرنامج ولكن دون حساب للساعات الإضافية.

كان هذا الرجل يمتلك لسانا معسولا يعرف كيف يصرفه بين العملاء وبين السعوديين الذي يعرفهم جيدًا لا يبالي أن يكذب أو ينافق هذا شيء محبب له يكون على ملة من لديه مصلحة معه ثم بعد أن تنتهي المصلحة لا يعرف أحدا.

هذا كفيلي المصري باختصار شديد، الذي جعلني أكره محافظته وبلدته وكل من يقترب منه وكل شيء يفكرني به، بل قد جاء عليّ بعض الأوقات فكرت في الانتقام منه إلا أن خوفي من الله يمنعني في اللحظات الأخيرة.

عدت إلى المنزل وأنا أفكر في كل ما يمر أمامي من معاناة للناس هنا وفي مصر، لا أجد شخصا مرتاحا في هذا العالم، في مصر الناس تريد أن تهرب منها ويحسدون من يقطن الغربة وعندما يسهل لهم أمرهم ويأتون إليها يلعنون ذلك اليوم الذي جاءوا إليها، ولا تجد شخصا كامل الرضا أبدًا عن حياته، فحتى من يتقاضى راتبا كبيرًا هنا عندما تتحدث معه لا تجده سعيدًا، وحتى من يجلس معه أولاده هنا لا يكون سعيدًا، غرباء هؤلاء البشر الذين لا يرضون بشيء على الإطلاق، الإنسان به ضعف وجهل كبيران ولا يعرف مقدار الخير الذي يرزقه الله كل يوم وتجده يقنط من أقل الأسباب، اعتياده على النعم جعله لا يتوقع زوالها مع أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بالله من زوال النعم، بعض الناس يقدّمون الذنوب مع أن الله كل يوم يرزقهم ويسترهم ويمن عليهم بوافر

فضله وهم يردون الجميل بالذنوب ولو تأخر طلب أحدهم يقنط، غفلة كبيرة نعيش فيها ولكن أرجو من الله لنا الهداية.

تمر الأيام سريعًا وفي يوم جاء أبو طلال إلى مكتبه واتصل بي عبر الهاتف الداخلي للشركة وأخبرني بأنه يريدني في أمر هام، قابلني ثم عرض عليّ أمرًا غريبًا للغاية، طلب مني أن أذهب معه إلى المحكمة يوم الاثنين وأن أشهد معه زورا في قضية مع أحد خصومه الذي يقاضيه، واتضح أن خصمه على حق وأن أبا طلال لا يريد أن يخسر القضية بأي حال من الأحوال.

رفضت بغضب شديد جعله يتفاجأ من رد فعلي، ثم جاء يوم الاثنين وخسر القضية، تعجبت منه لماذا أنا تحديدًا؟!، وهل يكون القاضي بهذه السذاجة أن يقبل بشهادة مكفولك؟!، وهل أنت ترضى أن تكسب قضية كبيرة مثل ذلك بشهادات زور بعض موظفيك، فساءت العلاقة إلى أقسى درجة بيني وبينه حيث إنني توقعت النهاية القريبة لرحلة الغربة بأكملها حيث أصبح الأمر لا يطاق ولا أتحمل كل هذا الضغط من خصومات وظلم وغير ذلك مما يجعل الغربة لا فائدة منها.

الفصل التاسع

(نهاية الغربة)

كنت قد أمضيت العام الأول من بعد عودتي من إجازتي، فكرت في كثير من الأمر حول ما ألم بي ماذا أفعل؟ وماذا لو تركت العمل ونزلت مصر الآن؟ ماذا أعمل هناك؟ وهل أجد عملًا في مصر مناسبا لي أم ماذا؟، كانت تدور في رأسي أسئلة كثيرة أريد أن أبحث عن إجابة لها.

أيام قليلة وبدأت نية أبي طلال تتضح لي من خلال تضييق الخناق الزائد عن الحد حتى استخرت الله في طلب خروج نهائي وقدمتها له فوافق على الفور وكأنه كان ينتظرني وحمدت الله كثيرًا على ذلك، وبدأت في الاستعداد للنزول وأبلغت كل أصدقائي بذلك.

-بعضهم قال لي: اشترِ فيزا حرة وعد إلينا وسنجد لك عملًا يناسبك، ولكني رفضت.

-وبعض آخر قال لي: أعطني السيرة الذاتية الخاصة بك أقدمها لك في الشركات التي أعرفها ربما يتصلون بك في مصر، رفضت ذلك أيضا.

كان الأمر لدي أشبه بزاهد في الدنيا قد حان موعد رحيله عنها ما بين فرح وخوف مما ينتظره، ولكن كنت متفائلا للغاية، لا أدري ما سبب هذا التفاؤل بالرغم من أنني لم أملك من الدنيا إلا بعض ما استطعت أن أدخره في غضون ثلاث سنوات غربة، تعلمت فيها الكثير والكثير وعلمت أنها مقبرة يضطر إليها البعض ويندمج فيها ويدمر أجمل سنوات عمره فيها ويعود محملًا بالأمراض القلبية والجسدية إلى بلده يعود غريبًا عن الوطن وعن الناس يحتاج إلى وقت كبير لكي يندمج مع الحياة من جديد، هذا إن استطاع ولكنه في الغالب يظل قانطا من سوء أحواله فى وطنه ومما اعتاد

عليه في غربته حتى يسلم نفسه للأمر الواقع، ويندمج في بلده وينسى غربته من مميزات وعيوب قد أثرت عليه بالسلب والإيجاب وتبقى ذكرى.

كان قد اقترب موعد الرحيل ولم يتبقَ سوى أيام قليلة، استأذنت فيها أبا طلال أن أذهب إلى العمرة قبل مغادرة السعودية فوافق على مضض وكأنه يريد أن يتخلص مني سريعًا أو يخشى أن أهرب وكيف أهرب ولديه جواز سفري الذي لا أستطيع أن أرحل إلا به؟ وكيف أهرب وهو لم يعطني باقي مستحقاتي؟ وكيف أهرب وكل قانون في هذه البلدة يسانده هو فقط؟!

ذهبت إلى العمرة رجاءَ أن أغسل درن الشقاء من تلوث القلب مما حمل من غربة بها الكثير من الأمراض القلبية، لا أجد سعادة أجمل مما وقع في قلبي من رضى عندما فرغت من العمرة كنت كمن ملك الدنيا كلها بين يديه، ناجيت الله كثيرًا أن يدبر أمري في أيامي القادمة، وحمدته أن لم تطُلْ بي سنونَ غربتي هباء، وحمدته على الستر في الأيام الماضية.

بعد أن انتهيت من العمرة ورجعت من السعي بين الصفا والمروة وجدت شخصا يرفع يديه إلى السماء يبكي بحرقة دموعه غزيرة لا أحد يراه الكل يمشي من حوله ولا أحد ينظر إليه وهو مندمج في الدعاء ولا يردد إلا كلمة واحدة (اللهم عليك بهم) لا أعرف من يقصد تحديدًا ولكني تأثرت كثيرًا به ولم أعلم كم تساوي الدنيا حين يجعل شخصٌ أحدا يدعو عليه بهذه الحرقة في أطهر بقاع الأرض.

اتخذت مكانًا خلفه وجلست أنتظره حتى يفرغ من دعائه ولكنه أطال الدعاء حتى اقترب أذان العصر ولولا إقامة الصلاة ما انتهى، فرغنا من

الصلاة وذهبت إليه وقلت له: بالله عليك أخبرني على من تدعو منذ ساعتين.

تفاجأ بي ولم يتوقع أنني أراقبه منذ فترة، لم يجبني، كان من جنسية عربية يبدو عليه أثر الإرهاق، عيناه لم تجف من الدموع بعدُ، يغطي رقبته بغطرة لونها أبيض منقوشة بالأسود، ألححت عليه أن يجيبني، لم يتجاوب معي، تركته فترة حتى جاء بجوار الحائط الذي أتكئ عليه وشرح لي ما ألم به ولكنه لم يتمالك أيضا دموعه كنت أحسبه أقوى من ذلك؛ علامات وجهه وبنية جسده تدلان على أنه قوي البنية ولكننا ننظر إلى الأجساد ولا ننظر إلى القلوب، كم كان يحمل قلبًا رقيقًا لا يتحمل ما ألم به من ظلم تفشى في المجتمعات العربية والعالمية.

حكى لي عن ظلمه هنا في بلاد الحرمين من كفيله وزوجة كفيله حيث كان يعمل لديهم سائقا خاصا، وكم كانوا قساة عليه حتى طرد من عندهم دون مال أو طعام أو أي شيء تجرد من كل شيء وأعطوه جواز سفره مع ورقة خروجه النهائي.

لا أعلم كيف أتى بالمال ليأتي لمكة، ولا أعلم كيف يعود لوطنه ولكني أعلم شيئا واحدا أن الله يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

تركته بعد أن رفض مساعدتي له بأي مال، ثم تجولت في شوارع مكة الجميلة، وبينما أطوف على محلات العطور والمطويات والكتب رأيت مطويات كثيرة شد انتباهي منها مطوية صغيرة تتكلم عن الظلم اشتريتها

جميعا وددت لو أني أوزعها على العالم أجمع ليعلم الجميع كيف تكون عاقبة الظالم وكيف يمهله الله ثم ينتقم منه أشد انتقام.

رجعت إلى الدمام وتسلمت مستحقاتي وحجزت تذكرة ذهاب فقط وودعت كل من تعرفت عليه في غربتي مع بعض الألم من فراق نتيجة لعشرة قليلة ولكنها أثارت قلبي.

عدت إلى مصر ذلك الوطن الذي مهما تعبنا فيه يظل في أرواحنا ودمائنا ليست شعارات كنا نسمعها ونحن أطفال ولكنها حقيقة لمن جرب البعد عنها يعلم ما أقول، عدت وأنا بي كل الحيرة في وطن زادت مشاكله عن قبل ثلاث سنوات، لم يعد لي مكان في بيت أبي، ولم يوجد عمل لي محدد، وبعد تفكير طال بي قررت أن أفتح مكتبا للمحاسبة.

نعم مكتب محاسبة بالرغم من أن خبرتي ضعيفة ولكني حصلت على كارنيه المحاسبة ومع ذلك فكرت أن أستعين ببعض زملاء يعملون في نفس المجال منذ فترة بين مكاتب المحاسبة والضرائب العقارية، ثم بدأت في تنفيذ ذلك الحلم حتى استقر بي الأمر على موقع جيد وسط شارع فيصل المكتظ بالناس، كل ما أملكه يكفي فقط لاستئجار شقة وفرشها بمكاتب وأثاث وبعض أجهزة الحاسب.

بدأت أولى خطواتي في التنفيذ وجدت تعقيدا شديدا من قبل الحكومة والإجراءات الورقية ثم وجدت تيسيرًا بمساعدة بعض أصدقائي القدامى، وتيسر لي فتح المكتب، في البداية لم أكن أصدق أني أصبحت أملك مكتب محاسبة حتى ولو لم يدخله عميل حتى الآن.

كانت الفترة الأولى بين الحلم واليأس والخوف مع عدم وجود عملاء وعدم شهرة للمكتب ولا لاسمي، بدأت في السعي والبحث عن عملاء عن طريق الدعاية البسيطة للمكتب ثم قمت بالبحث عن شركات وعرضت عليهم خدمات المكتب بمقابل مبالغ رمزية، كانت أغلب الشركات تتعامل مع مكاتب أخرى كبيرة وليس لديهم نية للتعامل مع مكتب يبدأ حديثًا.

كان الإحباط يلازمني خلال الثلاثة أشهر الأولى خاصة أنني كنت أدفع إيجارا للمكتب وفواتير للكهرباء وخلافه، وموظفة استقبال ومحاسب ذو خبرة يساعدني، كل ذلك كنت أدفعه دون دخل يذكر للمكتب.

كانت تلح عليّ فكرة غلق المكتب والعودة حيث بدأت من شارع القصر العيني أبحث عن سفر آخر، وكانت هذه الفكرة تزداد عندما كنت أمشي في شوارع القاهرة وأجد الفوضى العارمة فيها عندما كنت أذهب لمصلحة حكومية وأجد ما لا يتحمله بشر، عندما كنت أمشي خاوية جيوبي من مصروفي وكل يوم ينقص ما معي من مدخرات الغربة.

وأتراجع في اللحظة الأخيرة عن فكرة السفر عندما أتذكر ذكرياته الحزينة وذكريات الناس التي تعاني هناك، أتذكر أنني خطوت خطوات كثيرة نحو الاستقلالية والنجاح وها أنا الآن أحتاج فقط للصبر.

الصبر الذي هو نصف الإيمان لم يكن من فراغ أبدًا لأنه شاق على النفس لا أحد يصبر صبرًا جميلًا إلا ويعوضه الله عن هذا الصبر خيرًا كثيرًا بشرط أن يكون صبرًا جميلًا دون شكوى أو جزع، صبرًا يحمل ما هو أرقى

وأفضل منه، صبرًا يحمل الرضا بقضاء الله وقدره، لا تتوقع أنها سهلة على النفس بل إن النفس لو وصلت إليه لبُشرت بالجنة في الدنيا قبل الآخرة.

كانت الأيام تمشي بهذه الوتيرة حتى وجدت صاحب محلات أجهزة منزلية ذهبت إليه أعرض عليه خدمات مكتبي فقال لي: إنه يريد أن يغير المكتب الذي يتعامل معه لتأخرهم عليه في إنجاز المهام ولسوء التعامل من بعض المحاسبين الجدد في المكتب. قال لي: "أريد أن أجرب معكم التعامل في مسألة ما"، ثم قدم لي بعض الأوراق التي يريدني أن أنجزها وكانت أغلبها تتعلق بالضرائب وما أشبه ذلك.

رجعت المكتب وأنا سعيد للغاية، ولكن بداخلي قلق من أول تجربة تعامل في تخليص بعض الأوراق الحكومية، ولكن عرضت الأمر على المحاسب الذي يعمل معي في المكتب فقال: "الأمر بسيط"، وقام بإعداد هذه الأعمال وكأنه يتناول كوبًا من الشاي.

علمت أنني ما زلت بالخبرة الضعيفة ولكني سعيد بما يحدث مع أول إنجاز فعلناه مع هذا التاجر الجميل الذي أعطاني فرصة للبدء معه في ظل البدايات الصعبة وقلة الخبرة وعدم شهرة المكتب.

فرح بسرعة إنجازنا للمهمة وأعطاني بعض المصالح والأشغال الأخرى وبدأت حركة العمل تدب في المكتب وبدأت أشعر بالأمل يتجدد مع التعارف اليومي لبعض الناس وأصحاب الشركات وزملاء الأعمال وتزايدت الأعمال يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر، كانت هناك معوقات وصعوبات كنت أواجهها بقلب صابر وتذكر لمرارة العبودية التي كنت أراها في الغربة حتى

استقر بي الحال وتيسر لي أن أشتري شقة خاصة بي وفرحت بذلك كثيرًا، كم كنت أعاني من صعوبة أن يكون لدي مسكن خاص بي.

بدأت في رحلة البحث عن صاحبة القلب تلك التي تمنيتها منذ سنين ولم أجدها حتى اللحظة ولكني على أمل أن ألتقي بها كما ألتقيت بنفسي بعد ضياع وفقدان أمل كاد أن يطول بي.

تمت بحمد الله تعالى

التواصل مع الكاتب

بريد إلكتروني: Momenms@Gmail.com

فيس بوك: : www.facebook.com/pro.momenms

تويتر: @MomenmsPro